

فلسفة

البيولوجيا السياسية بين سلطة المعرفة ومعرفة السلطة (2)

السلطة وازدواجية العنف تجاه الروح والجسد

ت حسن الصمق *

في الجزء الأول من المقال شكك ميشيل فوكو (1926 – 1984) في أبحاثه الفلسفية في منطق تاريخ الفكر وأعاد السؤال في أسس الحداثة وفي سلطة القديم ومعرفته. ومن ثم سعى إلى تفكيك سلطة المعرفة ومعرفة السلطة بتفكيك الذات انقلاب الحديث على القديم.

ومichel ميشيل فوكو الموقف عند تحليل وتفكيك أعراض عقلانية الحداثة السلبية، بوصفها المسؤولة عن الذات الهيمنة والتنسسي، والنرجسية والاعتزاز وظاهرة العنف والتبرد، حيث يستعرض نقدا جادا للعقل الوضعي عبر تاريخ العلوم الإنسانية والكشف عن مجمل التاريخ السري الذي ساهم في تشكيل العقل والوجدان بفعل التواطؤ بين السلطة والمعرفة.

وفي هذا الجزء الثاني من المقال يطرح الباحث كيف كشف ميشيل فوكو عن ازدواجية العنف الذي تمارسه السلطة على الروح والجسد معا، لاسيما في كتابه «المراتب والمعاقبة» والذي حلل فيه بعض الأساليب الدالة على إخضاع الجسد وسجن الروح.

يمكن الرجوع إلى الدرس الأول: «كانط والثورة» الذي ألقاه سنة 1983 في الكوليج دو فرانس، الذي يذكر فيه على ما اعتور صرح الحداثة من أسئلة عصر التنوير، حيث طرح مسالة الحداثة في الثقافة الكلاسيكية ضمن محور ذي تلبين: قلب القديم وقطب الحديث. فقد تحدث صياغة المسألة إما في اتجاه سلطة علينا قبولها أو رفضها (أي سلطة تقبل- وإي نموذج تنبئ- الخ...). وإما في شكل (مرتبط بالاتجاه أو التفكيك بمعنى تشريح العقل وعلوم ووسائط العمل الذي يستلزم القيام به داخل هذا الكائن عليه: هل القادسي أفضل من الحديث؟ وهل نحن في فترة انحطاط...»

ومن ثم أهدي ميشيل فوكو إلى صيغة جديدة في طرح مسألة الحداثة، إذ لم يعد السؤال في علاقة الحداثة مع القادسي وجدل القديم والجديد (وخرقا على هذه الثنائية فحسب)، بل (...) انطلاقا من أنية المتناهي: على الخطاب بدءا من الآن أن يضع في الحسبان أنتيه حتى يحدد فيها مجال تواجد الخاص من جهة، وحتى يتلفظ بمعناه من جهة ثانية. وهذه اللحظة تعني في نهاية الأمر صيغة العمل الذي يستلزم القيام به داخل هذا الكائن عليه.

وما على ما تقدم بطرح فوكو سؤالاً: «ما هي أنتي؟ ما معنى هذه الأنية؟ وما هو نوع العمل الذي أقوم به حين أتحدث عن هذه الأنية؟ ذلك في رأيي ما يطرح تساؤلاً جديدا حول الحداثة، أن تحيا نموذج يعنى أن تجيب على قضاياها وتجد حلا لآزماته. وهذا التراث النقدي الجديد يطرح السؤال: ما هي أئيننا؟ وما هو المجال الحالي للتجارب المستكشفة»

نذكر أن تحسين السؤال التاريخي ووضعه في دائرته الزمنية والمكانية، يعني استشراف المستقبل بالوقوف على أبحاثه وضروراته وقضاياه المستحصنة. كما يعني أيضا الوقوف على الماضي وتجاوز علانه وأوجه قصوره. أما من حيث الرؤية الفلسفية، فنحن إن أمام عملية تفكيك ثلاثية التركيب: تفكيك بمعنى تشريح العقل وعلوم ووسائط العمل الذي يستلزم القيام به داخل هذا الكائن عليه. وتفكيك مؤسساتها ورؤيتها وتاريخها.

– تفكيك مؤسسات السلطة في جزيئاتها وجوانبها الصغيرة المتناثرة من أعلى الهرم إلى أسفله ومن أسفله إلى أعلاه.

– تفكيك التاريخ، بمعنى تفكيك تاريخ المؤسسات والعلاقات الاجتماعية والممارسات معايير وضوابط وقواعد ونظم وسلوك وقوانين ميثوقة في الجسد والجمع والمعرفة والنفس.

كل ذلك يتم من منطلق تفكيك عقلانية الحداثة أو قل عقلانيتها الحسائية المفرطة والفاخرة والساردة، فالنتيجه الاجتماعية والسياسي والاقتصادي الحديث، هو قمة العقلانية والنسط واللحاة والعاقلة. بيد أنه في هذه العقلانية، هناك لا عقلانية وسديم وفوضى وتنشيطية إن يفيد أحدا إنكار ذلك، فأحداثها هي حيلبي بقبضها. أي أن السلطة بوصفها معرفة تتضمن في صلبها عناصر مفاوتها بالضروة.

موطن الوعي والأسرار القدسية

والواقع أن هذه المؤسسات التي تنظم وتقتن وتضبط وتهيكل حبل العلاقات الاجتماعية، هي في ذات الوقت أفكار ومعارف تعج بالاضطراب والقوضى والخلل. فوعي الروح والجسد التي يتكشف عنها عالم مؤسسات الصححات النفسية وعالم السجون والقليبع وكل حالات التيه والضياع والاعتراب والشرذم في الواقع الاجتماعي العنيد.

وبالتالي فإن أولى الخطوات في رحلة التفكيك هذه، تشمل العودة إلى التنديد بالمفصل الذي تم بين الجسد والروح على غرار الفصل الذي تم بين المكان والزمان في العقل البشري أما ماد طويلة، فصل ادعى أو توهم على غرار الإنسان أن يعقل كنيوته على روجه جسدي، إذ من خلال هذا الفصل الذي قام به بديكارت في القرن السابع عشر، نشأت عقلانية وصعت الروح في مركز العقل، غير أنها احترقت الجسد ووارثته في تراب الخليفة وحملت وزرها.

ثمة رأي يرجح أن هذا الفصل قديم قدم الفصل بين السماء والأرض عند افلاطون، لكنه أثر أذ حدة عم بديكارت الذي أسس بموجب هذا المفصل تنظيما جديدا للمعرفة والسلطة السياسية قائم على أفتوهما: «أنا أفكر إذن أنا موجود..» ومن ثم لم يعد من طمير للعلقة إلا من خلال تلك الروح السامية والعقل الجرد، بينما تم تعقيب الجسد وتم حبسه، بل ووصل الأمر إلى عدم الاعتداد به أو الارتكاز إليه لأنه مهد الواقع والنازع، وما ليس معه مستقر أو مهاد، إن لم يكن عورة وندس ومفرقة قانوات ويجب نسيانه.

إذ برسني هذا التقسيم البديكارتى الفصل بين المالمية والمادية الذي كان له تأثير كبير على الفكر الإنساني خصوصا فيما يتعلق بالفصل أو الانفصال بين الحياة العقلية التي ينفرد بها الإنسان عن سائر الحيونات من ناحية، ثم كويته البيولوجي كعضوية جسدية يشترك فيها غيره من الكائنات الحية من ناحية أخرى. لكن من شأن حجب الجسد ولورة فصل بينه وبين الروح، أن يجعل الفكر والإحساس بالوجود خكرا على العقل والروح التي وضعا بديكارت في أرباع عاجبة متعالية ووضعها افلاطون في علياء السماء، وكان من نتائجه أيضا إحلال الجسد منزلة وضعية في

الإحساس بالوجود ومدارج الإبراك.

فخلال هذا الفصل وهذا التقسيم في الدور والوظيفة، تم إقصاء الجسد من دائرة الإهتمام واعتباره شيئا وبليلا لا يد منها. مما نشأ عنه عرض مختلف الأشياء المحبسة به على الروح ملكوت الصفاء وموطن الوعي والأسرار القدسية. كما أن هذه الروح اعتبرت صافية مطهرة من دنس الشهوات والغزوات، بل هي الجديرة ومطوى الفكر والتأمل والمناجاة والسامية. بالمقابل تم وضع الجسد في موطن الغوايبة والإستغواء وعالم الرذيلة والفاحشة.

بيد أنه نتيجة ترحي من حضارة وثقافة تفصل بين الجسد والروح أو تفاضل بينهما، فالجسد يجب ألا ننسى أنه قوام الكينونة وبه يتم الإحساس بالوجود. لذلك وجب رفض المقابلة بين ما هو جسدي مدسّس وهو روجي مقدّس، لأن هذه الثنائية تفرعت عنها ثنائيات خاطئة في القيم كالتعمير لأجل العلاقة بين الرجل والمرأة، وبين حاجات الروح وحاجات الجسد. وهذا ما يجب القطع معه لأنه تفاضل بين الروح والجسد، فهما زوجان لا يتفصلان و حاضران على الدوام في الفكر والممارسة والخطاب والوجدان على حد سواء.

ولعل المهمة الأولى التي ندر لها الفيلسوف ميشيل فوكو جهوده، هي أنه أخذ على عاتقه الكشف عما يكبل الجسد، لأن ذلك في نظره تكبيل للعقل أيضا. ففك أغلال الجسد من البات التدجين والنقي والترويض هو إطلاق سراح العقول من سراديب الحجز والزيف والإتارة والحاجيات المرفية.

ولهذا يعدد فوكو في كتابه: «المراقبة والمعاقبة» إلى الكشف عن مجمل التقنيات السياسية والمرفية الخاصة بترويض الجسد عبر التاريخ، حيث يشمل عرضه وصفا كاملا آليات الزجر والعقاب والحس والتوقيف والهدمية التحريم والمنع والحجز والمصادرة، أو ما يسميه بإقتصاداتها ونامح تجدير المكان، بما فيها الإجراءات والمساطر والقوانين والنظم والأعراف التي تجعل من الروح ألد طبيعي وصالحين في نظر المجتمع من ناحية، وبالتالي فحص تقنيات تكبيل الروح من أخلاق وقيم وعدادت وأعراف تلجم الجسد، بخاصة تلك التي تتساعد السلطة القائمة في المجتمع على ترويض أفراد من ناحية أخرى.

غايته الإصحاح عن مجمل التقنيات المادية والثقافية للسلطة –لك العنوان العريض– التي تشكل ما يسميه بتاريخ الاقتصاد السياسي للسلطة، ومن ثم معاينة مجمل الأفكار والممارسات الحديثة التي أدت إلى ظهور مجتمع المراقبة والمعاقبة وتعزيز البات الرقابية المادية والذهنية فيه.

ويكمن أن يعتبر على غرار ذلك، إن تاريخ السلطة غير منفصل عن تاريخ الأفكار الذي يتضمنها ويشير عنها، فلا فصل بينهما لأن السلطة مندمجة بمعرفة ما، وهذه توحيد بالسلطة كما أصبحت منفتحها أو حقيقيتها، إن لا توحيد للفصل بين المؤسسة وفكرها انطلاقا من تشريح «فيزياء» السلطة [أذا جاز التعبير، حيث يفوض في أجزائها الصغيرة ومجمل تراكيبها التي إن تم تفحصها، لن نصل إلى أعلى الهرم استوكيات التي مؤسسات وأجهزة قائمة الذات، تنظم وتقتن مجموع الممارسات والسلوكيات التي تهدف التحكم وترويض ما تراه في العلاقات الاجتماعية متحرقا ومتمردا وخارجا عنها من خلال تحديد أعراض هذا الانحراف، كي نعلن للمجتمع عن هو السوي ومن هو غير السوي، ومن فرضي عنه ومن يتفخره بئس المصير.

قلب فكرة العقد الاجتماعي

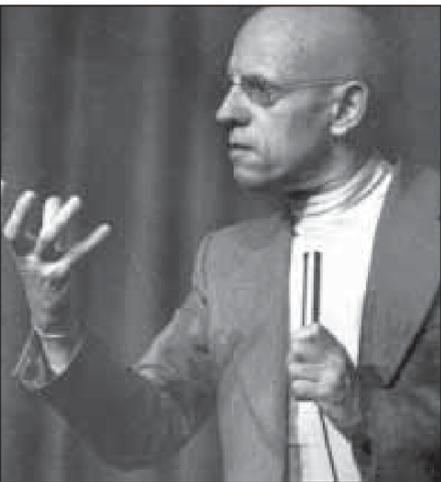
ومن الملاحظ أن فحريات فوكو في بنىة السلطة التحتية بحوزها أمل الكشف عن بنىة العنف المادي والرمزي الذي تمارسه الدولة على الأفراد والجماعات. ومن ثم دراسة إحدى القضايا التي استحدثت الباعث البشري طويلا: طبيعة العلاقة غير السوية بين السادة والمواطنين، بوصف الأولى حاضية طبيعية لآلية العنف ووسائل القوة التي تستعملها لإبراز لغضاب حيلبيتها وسطونها ضد الأبرار.

إذ لأول مرة يحدث في تاريخ الفلسفة أن يعدد فيلسوف إلى قلب فكرة العقد الاجتماعي التي كانت وما تزال شعار المدنية الحديثة، ولا غرابة في ذلك ما دام فوكو يمتلك مضع التحليل المادي والتفكيك الرمزي والتشريح الدقيق للأفكار والظواهر والمؤسسات يعقل نقدي لا يهائن. إذ أخرج عما الفراه من فهم العلاقة الاجتماعية التي تنظم الأفراد من زاوية العقد الاجتماعي بين بعضهم البعض، أو بينهم وبين السلطة التي فوضوا لها حق تدبير أمتهم وإمانيهم. وهو ما قام به الفيلسوف هوبز... عندما أقرت الصلحة السياسية الحديثة للحاكم وحده - الدولة - حق استعمال سلطة الإكراه، حيث أضح حق استعمال القوة من زجر والتعذيب وعقاب وقصاص حقا من صلاحية الحاكم وحده، وهو كناية عن تنازل الفرد للحاكم عن حقه الطبيعي في ممارستها بنفسه، بشرط أن يتم بالإن مقابل ذلك، وهو ما يمكن اعتباره اليوم ميثاق العقد الاجتماعي الحديث.

بيد أن فوكو يقبل هذه المعادلة راسعا على عقب عندما يفوض إساسها الذي تندني عليه، مستخدرا بقوة منطلقه الداخلي، حيث يلاحظ إن: «التعاقد على المستوى الإقتصادي خاصة عندما يجمع الأفراد لأختيار من يعظم (صاحب السيادة)، مفوضين له سلطة مطلقة عليهم. لنتساعا، ترى لماذا يقولون بذلك» (...).«ويجب، إنهم: يتخارون هتمل السيادة (الحاكم) لكي يتكتموا من الحياة، وقبائسا على هذا الحد، بل تدخل الحياة بالطبع في دائرة إخضاع صلاحيات من يعقل السيادة» (...). إذ لا يمكن نزع حق الحياة ووضع من صلاحياته، فهذه الصلاحية خارج التعاقد، ما دامت هي الباعث البدني والجوهري لهذا التعاقد، وهذا المفوضي»

بطبيعة الحال، لا يمكن أن يهب أحد منا للحاكم حق نزع حياته، ما دام أنه تنازل وفوض حياتها للدفاع على كي يكون في مامن من شريعة الغاب. فالحاكم عليه أن يحافظ عليها، لأن يسلبها إياها مهما كانت التبريرات ودعاوي ذلك، إذ لا تنازل عن حق الحياة إلى سلطة مهما كانت.

هكذا أصبح فوكو من بين أول الداعين لإلغاء عقوبة الإعدام، وبالتالي فهو عندما يعدد دراسة العنف مجتمع الأشهاد، بما فيه حق العقاب والزجر والتاديب أو التفتيل الذي تمارسه السلطة على الأشهاد، فإنه لا يجب أن ننظر خارج إطار منطق ميثاق العقد الاجتماعي ذاته لإبطال دعوى شرعية ذلك، بل يجب أن نأخذ إلى تحليل منطق السلطة الداخلي، بخاصة عندما تلجأ في الغالب إلى معاقبة بل من يسبح لنفسه بالتساؤل عليها. إذ لا يمكن الاستدلال على ما تقوم به وفق أية حجة وإي تدبير قد يلجأ إلى العقد الاجتماعي كسند له في مسعاها. ومن ثم لا يمكن قبول شرعية عنف



ميشيل فوكو

السلطة تحت أي مبرر أو أية غاية، بما فيه عندما تزعم أنها تلجأ إلى ممارسة العنف المؤسساتي بدعوى الحفاظ على أمن المجتمع أو حماية حياة الأفراد من الاعتداء والموت بسبل حياة الآخرين.

مؤدى ذلك أن تفكيك مبررات عنف السلطة الذي يمارس عبر العديد من الإجراءات والممارسات والنظم والمؤسسات بشكل فهما لوجهها وطبيعتها معا، ما دام أنه يمر عبر الآليات التي تقوم عليها السلطة ذاتها. ومن ثم أهمية إباطة اللثام عن ذلك العنف الجوهري الموجود في صلب العدالة، بخاصة منها ما يمارس في حق المتحررين الذين يتخلطون على قانونها بحجة دفع الانحراف عن المجتمع والقضاء عليه.

والحال أن التنديد بعنف «مجتمع المراقبة» الحديث، لا يعدو إلى كون ممارسته تتم بطريقة همجية فحسب، بل إلى كونها غالبا ما تتم بطريقة مقلعة ومتخفية، سواء عبر الخداع والحيل القانونية الثانوية في أحكام العدالة ذاتها، إذ يكفي الوقوف على مختلف صيغ الإدارة الحديثة وخطابها الرسمي الذي يحاول صباح مساء إصباغ الشرعية على ما تقوم به بإبغاه وجهها التبشيع بقناع رحيم.

وبالتساؤل عن الطريقة المروجة التي تمارس بها السلطة عنفها على الجسد والروح معا، لحل فوكو بنىة الخطاب الذي يبرر هذا العنف الذي ترتكز عليه ميكانيكا الترويض. ذلك أن عدالة العصور الوسطى كما نعلم كانت تصارس عنفها وتاديبها للمادي والرمزي في الساحات العامة عبر عرض صور ضحاياها وهي تئن وتندبح مستعطفة رجحة الجلال في ساحات الإعدام، أو من خلال إنشاعة الرمية والذهبية في صدور الناس عبر تقطيع الأوصال وصلبها على الأبواب والتعميل بها. ويعتبر من يعتبر.

غير أنه يفضل مبادئ الثورة الفرنسية لم يعد الجمهور بفضل واجب الاحترام للكرامة الأمية، يقبل بعرض قطعاة الشق والصلب والإعدام ويتر الأعضاء وممارسة التشويه الجسدي وتقطيع الأوصال والتعميل بأصحابها وحرقها في الساحات العمومية، ما استدعى من السلطة البرجوازية الصاعدة، ابتكار البات جديدة لترويض الأجساد المتعددة والاستعاضة عن جرما في الساحات وصلبها أو التعميل بها على أسواب المدن، بالمحتن آخر طريق آخر وعلى أسكال جديدة تضم المذبب بوصمة العار والخزي والمذلة والمهانة من خلال وضعه في قفص الإتهام أمام الملا، وتكبيله بعقدة الذنب والتشهير به، كما التشهير به وسط الجمهور في المحاكم. ومن قبل إنزال الحكم وعقوبة الجسد، لا ينتم تسليمه بعد ذلك إلى مؤسسة أخرى تضطلع بتنفيذ الحكم وتوقيوم ما به من عوجاج.

عنف الإقطاع .. والتدجين البورجوازي

ثمة تغيير في أساليب القهر عند البورجوازية عما كانت عليه عند الإقطاع، بدا بالبحث عن إيجاد وسائل ترويض من خلال تقاسم الأوار والاختصاص بين مؤسسات الدولة والفصل بين السلطات الذي تم مع إعلان الجمهورية الفرنسية الأولى، حيث أصبحت مؤسسة السنن -حلا في فرنسا- لأول مرة تحت إصرة وزارة الداخلية، كما أن تطبيق أحكام النقي والإبعاد القسري أصبح من اختصاص وزارة البحرية والمستعمرات.

وبموازاة ذلك أصبح القاضي في ظل الدولة البورجوازية، يحكم بموجب القانون وليس بما يسهر له ديوان الملك أو الكنيسة من أحكام في هذه المنازلة أو تلك، حيث أصبح مبرر العدالة الأول يتمثل علنا في إصلاح المجتمع من عيوبه، كما أن حجم العقوبة المقررة أصبح يتم وفق حجم أضرار الجريمة المرتكبة من ناحية، أو بغاية الحفاظ على سلامة المجتمع وتخليصه من الانحراف وعانة الجرميين من ناحية أخرى. كما جعل القاضي في الدولة الحديثة في وضع شبيه بالطبيب، فهو مجرد طبيب متخصص في معالجة الأمراض الاجتماعية، بينما أصبح الحراس والموظفون في السجون بمثابة ممرضين مكلفين بالعناية بجسد المذبذب والتخرف عبر إمداده

بجرعات من التاديب اليومي تحدها وصفة الطبيب الاجتماعي، حتى يرجع عن غيه ويُكفر عن ذنبه ويستقيم أعوجاجه بقضاء المدة اللازمة للعلاج.

إذ أنه عوض التعميل بالجسد الإقصاء الأنساني المتأخر وقطع الأعضاء وبترها وصلبها واستعراضها في الساحات، تم تطوير البات الزجر والتاديب والعقاب، حيث لم (...) بعد العذاب البدني والآم الجسد عناصر مكونة للعقوبة، بل تم تحويل العقاب من فن الإحساس الفظيع بالألم إلى الإقصاء الحرمان من التمتع بالحقوق.

ويغض النظر عن صفة هذه الوصفة ومدى صدقيتها إذا تأملنا ما حدث في أبو غريب وما يحدث في غوانتانامو حاليا، فإنه بموجب الحرمان يتم، بتجديد جيش جرار من التقنين مختصين في ترويض الجسد (المضرد)، يقومون بمقام الجلال رمز التعذيب السابق بامتياز، وذلك على نحو لم يعد التعذيب البدني والإحساس بالألم الغاية الأولى والأخيرة من أحكام العدالة المعلنة جهرا، بل إن مهام حضور الحراس والأطباء والرهبان والمحللين النفسيين والمربين في السجون، تبررها محاولة تطويق هذا الجسد المتضرد وتوقيومه وتصحيح ما به من عوجاج، كي تتم إعادة تأهيله ومدحه من جديد في المجتمع بعد أن يدفع ثمن تمرده عليه.

وماهنا تفكيكا الإشارة، إلى أن الطبيب الذي ينصرف على المحكومين بالإعدام في المعاصر المختصة لذلك -عرف انتظار تنفيذ الإعدام– أصبح يعنى باجسادهم إلى آخر لحظة من حياتهم، حيث يحاول تهدئة روعهم وقلقهم الشديدين، بما يجعل دوره هشا على النقيض من الجلال ومؤراء الموظفين الذين يستنفذون حكم الإعدام فيه بعد حين، حيث يصيح وأجبه مقتضيا في حق المحكوم عليه مسككات أو إمداده بعقايير مهيئة. الأمر الذي يكشف عن مفارقة قضيعة في هذه العدالة المرفية التي قبرت أن تحرم المسجون من حق الحياة، بينما هي في الوقت ذاته تحاول الظهور بمظهر إنساني رحيم، حيث تزيد أن يموت دون ألم وعذاب شديدين، فهي تحرمه من جميع الحقوق بما فيها حق الحياة، غير أنها للفرابة تحاول الظهور بمظهر عوف من خلال إعفائه من التعذيب البدني والإحساس بالألم.

والحال أن ميشيل فوكو يحذرنا من هذا الكرم «الحائسي» الذي انطلق مسلسه مع سنة 1760 ولا يزال، إذ لم يعد الجسد هو المستهدف الأول والأخير فحسب، بل أصبحت روح البشرية المثنية هي المستهدف، حيث يمارس العذاب والحس بغاية أن يتسرب الزجر إلى أغوار الكائن، لكي يمس أعماقه وجدانته وراثته، ومن ثم يصيب روحه وأرواح الآخرين الذين حوله في الصميم.

ناهيك أن هذا الرصد يتيح معرفة التحول الذي طرا على الزمان في نوره مع حلول مجتمع المراقبة الحديث، لكي تلحد مؤسسات الترويض المختلفة محل مؤسسة الجلال القديمة، بخاصة عبر شحوص جديدة مقلعة مختصة في ترويض الأرواح نياية عن ذلك الذي اعتاد فصل الرقاب أجزا الاعتاق وجلد الناس في الأسواق العامة. لكن هذه المرة، من دون أن يترك التعذيب آثاره على الجسد دنوبا وجروحا بايدة، بل قل إنها استبدلت تراجيديا التعذيب عبر الجلال ومشاهد المقلعة الوحشية -يقول فوكو- بكموبديا جديدة تنمو آثار العقوبة كليا أو تكئا، يقوم فيها باءوار البطولة هذه المرة، رجال لهم أدوار مختلفة ولهم أزياء رسمية من حراس ورجال أمن ومحاكمين وقضاة وأطباء وممرضين كل ينمطي قناعه يؤدي من خلاله وظيفته في سلم التاديب وترويض تلك الروح المتعددة.

حين يتابع فوكو دراسة خصائص هذه المرحلة -الحديثة- فإنه، يقف على تناقض هذا الفصل بين الروح والجسد فكريا، حيث يلاحظ أن كل هذه الإجراءات تتم ماسستها وفق خطاب له أجدبيته وتضاريسه البلاغية التي تشبه عليها السجلات والدواوين والأرشيفات، وبالتالي أصبحت التفتيل تصطلح أختصاص اللغوية هي من نضع عناوين لأشياء والقادرة على تسجيلها وتفتيلها وتصوغ عليها أحكاما قيميا: الحرام/الحلال، الخير/الشر، النور/الظلام، الروح/الجسد... بل إن مكانه من يبري أن شأن العقلات اللغوية في تسميها أصبحت صورة الروح وتعبيرها الحي، ما يعلى من هذه اللغة، وبالتالي من قيمة الخطاب الذي يسهر على إعداد منطلقها، أو قل حقيقتها...»

من هنا جاءت حاجة السلطة إلى خطاب: فمن لغة له، لا فكر له. أي أننا حين نتأشير مرحلة حدثانية يمر فيها مجمل الفكر عبر اللغة بعامه والخطاب بخاصة -قبل حلول عصر الطفرة التكنولوجية-ماتية-، ما ساعد على إقصاء الجسد من الحضور (كترافئ وأحاسيس وعاطفة...)، الأمر الذي سجع للمجتمع بأن يستبدل الجسد كموطن للتراث المنقلبة العقل ومصدر الخطاب، حيث أصبح كل الجهد منصبا على قنعه وترويض وتطهيره من البرسس والقطنية والرذيلة والشهوانية، بل تخلسه اللبغ إلى ظهور نظام اجتماعي يبدس أجساد النساء والعبيد والرعاع إلى عقولها ضعيفة وشهوانية لا تحسد التفكير ولا الحديث ولا بلاغة الإنشاء أو التماسل ومفكرة إلى خطاب عالم، ثم انسحب ذلك بالتدريج على جميع مجالات الحياة الإنسانية (الصالح الاقتصادي والعلاقات الإنسانية والاجتماعية والإدراية) ككل، حيث أصبح الأفراد يتعرفون على بعضهم وما يحيط بهم من خلال هذه المقلمات اللغوية الموضوعة وفق بيان وتبيين يخضع للخطاب له وقواعد وبلاغته الخاصة في السجلات والصحف وتكتب التعليم والمواعظ...

إحلال، إن هذا التبدل في خصائص مرحلة ما وتعميزها عن أخرى، يجد تبريره عند فوكو في محاولة الإشارة كيف ترتبط الكلمات والمفردات بالبيانات الذهنية، فهو محق عندما يلخص هذه العملية في ما أسماه بالبحث عن جذرها «المعرفي» (Episteme) التي فكر مرحلة ما وخصائصها المميزة.

بناء على ما تقدم، فإن الناس بهذا المعنى يتكلمون خطابا ويتفكّلون لغة ويرسمون صورا ويلبسون زيا وينتجون معمارا عبر عرسا العصور والأخقاب، ما يجعل من ذلك كله سلطة في نوب معرفة، ومعرفة في نوب سلطة، لأن لدينا ما يتكلم فيها في ثقافتهم وأصواتهم وعيهم وما يحيط بهم من خلال هذه المقلمات اللغوية الموضوعة والقواعد المتكررة التي يمكن أن تشكل الرؤية التاريخية المرتبطة بمرحلة تاريخية.

* باحث جامعي، مركز تاريخ أنظمة الفكر المعاصر جامعة السوربون

حماقة

إيهاب لعين ..
.....؟

حين تركز وراء اللاشيء من الأشياء
حين تعود بحبات الرجا.....
حين تراوح في نفس المكل
تذب في نفسى ملايين الأقدام
لا تسير.....

* ملازمة

أطارد نفسي
لا تلجأ أبدا في الإنسكاب بها.....

* عادات متعوّدة

أصدرت في حقها
حكما غيبيا.....

بالسجن المؤبد.....

* صورة باهتة

حين تدب على الأرض الأقدام
خطوة.....
خطوة.....
خطوة.....
سير للامم.....
تعود إلى الوراء.....!
يجعن الصباح.....
عرق المسير.....
يصير حزنا بلا مذاق
أراقب.....
هذا (تنطلق عيانه اجاهي)
وهذه (ترتقي بطرف عين)
وهذا (تفضح شفاته ابشامة خفية)
واراصل أكابيه الحلو
وعادتي المتعوّدة.....!

حين تدب على الأرض الأقدام
خطوة.....
خطوة.....
خطوة.....
سير للامم.....
تعود إلى الوراء.....!
يجعن الصباح.....
عرق المسير.....
يصير حزنا بلا مذاق
أراقب.....
هذا (تنطلق عيانه اجاهي)
وهذه (ترتقي بطرف عين)
وهذا (تفضح شفاته ابشامة خفية)
واراصل أكابيه الحلو
وعادتي المتعوّدة.....!

احتمال الحلم

مستوحشا باللاشيء تعشقني
في الزمان الذي لايجي.
ومبتعدا – فتر ما لاطيق –
ليس يبدو سواي
دعوك ياوصية الهالرين – إلى ذاهم
ليس يبدو سواي
بهذا الذي القرمزي
يستحق على مضمّن
مفردات السكون
ذائب في الضمضّ الذي اختلته الروى
هاجسا أدبنا المعوض
ويأبغّ حلمي الذي أكتفه الرواي
فترزعي وردة
في صحرائي الميوت.

صالح قادرهوه

ليل جائع

•••

* عن مرآي

بعف أثرى ارتدى القرن العشرون معطفه
وعم بالمعدرة كاتي به ناتق
الآن رأسها المذوح يشبه قبرا
تقدم الغروب تلك المنكحة^١
للصحن مبتذال.
رسمت للمهجة أجنحة
وهتم بالسقوط فرائشة مبدقة
يدوس اسماقة على مرآي من الدروب.

•••

* الشعراء

يا لحزني عليهم يتعرجون ماء الفجعة للئلا
نغص
يخسرون كل شيء.. مغاليل لاشيء..

•••

* قلب ضبور

لن يروح بمرتك أحد أبدا لليل
عاد قلب ضبور يتنفس طريقه بين
أصابعي.

•••

* في ساحة الشجرة

يطور في ساحة الشجرة تضرم مظاهرة
تفتت:
- لا لتعيب الضمأ،
- لا لنجح الأشجار
- لا لصناعة الأقداس.

•••

* ليت الحزن

ليت الحزن يستريح قليلا
يطام إن شاء أو يرحل محموبا بعبوسه
يقبئه تظيل.

•••

* مصادرة

لأنهم لا يجيدون فن الرزية
لا يصحسون هضم الأركان
صادروا فوس ترح وتهموه بالشعونة.

•••

* رقابة

لم يتغير شيء
شمس الأجدال تشرق وتعرب
الوقت يدهس بجعلته عظام الأمتكة
الجدال جالسة تخبئ الهيبة
النساء يفتن بتمشّن فاكهة الإغراء
النهار تجنّ ويضنها الآخر يشاسق
الأفكار تهمل بغزارة
فيما الإنسان يواصل تجوله
الإمبراطوريات تدوسها إمبراطوريات
الفاغض من البشر نصيب كلاب الحرب

فرج بوشبنة

العنوان الإلكتروني للقسم الثقافي في «العرب»
يرجى من الراغبين في مراسلة القسم الثقافي في «العرب» إلكترونيا توجيه مراسلاتهم إلى العنوان الإلكتروني التالي:
thaqafa@alarab.co.uk

شعر

* لا أساور
لا أساور توطن البيوت.
لا ستائر تحجب النوافذ عن شموسنا
لا تجاميع حديدية تجمل للشباب ملة
سجين.

* بنت في العاشرة
من دلتها وكرب الجميل
بنت في العاشرة لن تستضيفها صحرا،
أو دلتها روية
والته إن رمي بها الجميل
لا تتحدوا تد وهي الحبل معنى أنثى.

•••

* آخر الحبل

عكبا أمير يبدس لبنة حديقة
فيها يتناول غداء النوب
يضرر قيوتة السخيفة
يقرا جرائده التراكية آخر الحبل.

•••

* وليمة

ترنعت في عراة الكلام
والصمت خيمة مشمسة
ما تقوله وليمة ل (كان).

•••

* إلى أين؟

إلى أين تضيي إيه العطر؟
الطريق امامك عرضوف بالجنّ؟

•••

* احتشاد

سلف أجرب، مصباح ضبور،
منابع أعرج الصوت
وبانفذة بلا جن
يحتشدون في ذاكرة غرفة.

•••

* اسمع وأرى

اسمع خرقشة حرب في الخارج
أمرأة تفتح الباب كي تكس المهازل

•••

* لا أساور

لا أساور توطن البيوت.
لا ستائر تحجب النوافذ عن شموسنا
لا تجاميع حديدية تجمل للشباب ملة
سجين.

* بنت في العاشرة
من دلتها وكرب الجميل
بنت في العاشرة لن تستضيفها صحرا،
أو دلتها روية
والته إن رمي بها الجميل
لا تتحدوا تد وهي الحبل معنى أنثى.

•••

* آخر الحبل

عكبا أمير يبدس لبنة حديقة
فيها يتناول غداء النوب
يضرر قيوتة السخيفة
يقرا جرائده التراكية آخر الحبل.

•••

* وليمة

ترنعت في عراة الكلام
والصمت خيمة مشمسة
ما تقوله وليمة ل (كان).

•••

* إلى أين؟

إلى أين تضيي إيه العطر؟
الطريق امامك عرضوف بالجنّ؟

•••

* احتشاد

سلف أجرب، مصباح ضبور،
منابع أعرج الصوت
وبانفذة بلا جن
يحتشدون في ذاكرة غرفة.

•••

* اسمع وأرى

اسمع خرقشة حرب في الخارج
أمرأة تفتح الباب كي تكس المهازل

العنوان الإلكتروني للقسم الثقافي في «العرب»

يرجى من الراغبين في مراسلة القسم الثقافي في «العرب» إلكترونيا توجيه مراسلاتهم إلى العنوان الإلكتروني التالي:
thaqafa@alarab.co.uk

فلسفة

□ **حسن المصدق**

قدم الباحث حسن المصدق في الحثثين اللذينيزين من دراسته «تقنيات السيطرة على الجسد في أعمال ميشيل فوكو الفلسفية، طبيعة العلاقة بين المعرفة والسلطة (أي كيف تصبح المعرفة سلطة والسلطة معرفة) عندها لا يمكن تخيل حجب الخواز الروحي والذي يعصف بوحدة الجسد «إذ لم تصبح مجرد أشداً مجرّدة، متناثرة مشدودة إلى توتر الكائن وخوفه الوجودي، حيث لم يعد الإنسان يلوي على شيء، أمام البيات التتبع والسيط والمراقبة والعنف والتجنين التي أصبحت تخطيط به من كل الجهات.

فلا لحمة تتجمع بين الواقع المثلث المتغير من جهة والبيات الالجر والحجز والعمز للبيئة منها والعنيفة من جهة أخرى، كما لا فائدة أيضاً ترجى من تلك العقلائية التي لم تعد تسميه من عقابيل الحداثة وفروجهاد وجروجها الرمضية».

كّسا بعد فوكو في كتابه: «المراقبة والعاقبة» إلى الكشف عن مجمل التقنيات السياسية والأمرية الخاصة بترويض الجسد عبر التاريخ، حيث يشمل عرضه وصفاً لكلا أليات الحجر والعقاب والجس والتخويف وذهنية التعريم والتمتع والحجز والمضادة، أو ما يسميهه بالتضاميات ومنتاج تدبير الكائن، بما فيها الإجراءات والمساطر والقوانين والنظم والأعراف التي تجعل من الأفراد طيعين وصالحين في نظر المجتمع.

ينبه ميشيل فوكو على مستوى تحريات المعرفة إلى أن خاصة عسبر النهضة امتزات على مستوى المقتلات بحضور قوي للإيقونات والرموز والتماثيل، كما أن لسان القرن السابع عشر وعفرتا ويعينها، أصبحت بمثابة إهار تتخلل نخوة العيون وترتدبه الخارجير في تلك الحقبة، إذ أن أفراد هذا المجتمع حاولوا تنظيم وتصنيف وتمثيل وترويض ما يحيط بهم من ظواهر وأشياء ومعارف فسي جميع المجالات، ما أضفى على عصرهم سمة عصر الأجدعية والامتياز، سيما في زمن أصبحت فيه اللغة هي المسؤولة عن نقل العلوم والمعارف والفنون والتعليم والتربية. فبالكل يخضع لتلك البلاغة وما يصاحبها من تعقيلات لغوية بامتياز.

وإذا كان من تداعيات هذه الرغبة الجوهرة نحو التعقيلات اللغوية، ظهور الرغبة في التنظيم والتدوين والتخصيص والتدوين والتصنيف فإن اهتمام السلطة انصرف إلى إعداد خطاب له قاموس لغوي يلوّك الناس قلباً وبالبيا.

فالمسيطرة على اللغة بهذا المعنى، يعني المسيطرة على عقول تفكر وتتواصل بينها بعفرتا واصطلاحات. كما من شأن تصوريها وتجسيدها في التماثيل والرموز والإيقونات والمعار والأزياء يسهم في مزيد من التماثيل والوجدان والأحاسيس أيضاً.

وفي هذا التماثيل ظهور اختصاصات معرفية، ظلت الدولة تحرص وتتوسع من خلال تسييد خطاب دون غيره إعادة إنتاج أفكار الكائن الواعي وقوليتبه وفق نظرها ومعاييرها بتمتيم ذوقه والتأثير في أفكاره واختيار معجمه اللغوي والقانوني والجمالي، حيث مهد هذا الضبط لرؤى عديدة من داخلها، كالرؤية الطبية والرؤية القانونية والرؤية الذوقية من خلال خطاب طبي وخطاب قانوني وجمالي... وهلم جرا. الأولى تعمل على تضيق مختلف الأعراض والأعراض والعقل، كما يقابله اجتماعياً التمييز بين الصحيح والبرص، والمعالق والأحمق، السوي والمروج، المرغوب فيه وغير المرغوب... الخ، ثم من بعدها الرؤية القانونية التي أصبحت هي من تميز بين الجرم والمذنّب والمصرف واللعوج من جهة... كما تحديد المقبول والمستقيم، حيث تم ترجمة ذلك على المستوى الاجتماعي عبر مودات الأحوال الشخصية لتفصل بين ما هو عادي سموح به وما هو غير عادي، ومن هو في تعدد الجائز أو المحرم.

هكذا ظهرت مجالات منظمة ومحددة للحياة الاجتماعية، تخضع للرؤية بوصايات تلك التقسيم والتماثيل الذي لحق تصانف المعرفة وتبين سائر العلوم المختصة، حيث شكّل القول إن الفضاء التي استشكلت فيه العلوم الإنسانية منذ سنة 1800 أصبح محدد بداية بثلاثية علوم مختلفة (البيولوجيا - الاقتصاد - فقه اللغة) التي تأسست على منها على مبداء علم:

- البيولوجيا (الوظيفية) البحث في وظائف الأعضاء وتشريح الجسد)
- الاقتصاد (الصراع) - حول تحقيق الثروة لبلوغ مجتمع الوفرة وتنظيم الملكية)
- الثقافة (ما يتصل بالعلامة اللغوية والرموز= للتعبير والجمال والذوق).

إحصاء الأفعال

ثمة علاقة حميمية بين الوظيفة كمفهوم ظهر في حقل البيولوجيا عبر دراسة وظائف الأعضاء في الجسد البشري (ضبط وظائف ذات القلب ووظائف المعدة الدموية)، وتطبيق نفس المفهوم في العلوم الإنسانية والاجتماعية. بالإضافة إلى انتقال العديد من المفاهيم من حقل إلى آخر، من تلك مفهوم الصراع مفهوم مركزي في علم الاقتصاد ووظائفها المختلفة في علم الاجتماع. إذ بواسطة مختلف هذه العلوم ووظاياتها اللغوية، تم رسم حدود لفضاءات اجتماعية وثقافية وصحية يمكن أن يحسن فيها الإنسان كليا من خلال ضبط لغة وثقائهم أعضائه (لغة البيولوجيا) ولغة خياله (لغة الريمز والعلامات) أو من خلال ضبط لغة علاقاته الاجتماعية والسياسية (لغة القانون) والمليكة والثروة (لغة الاقتصاد). كما أنه من اشتغالات هذه المعارف المتمايزة على الإنسان (سواء في الحقل الأدبي والخيالي المحض أو في الحقل البيولوجي أو الفكري ووظائف اللغوس) تكونت معرفة شملت جميع ما يحيط بالإنسان طبيعياً واقتصادياً واجتماعياً وريزيا، بل بدأ المجتمع بالتفعل بجمع ما يتصل به من معارف ويعمل على تصنيفها وتنظيمها وتضيقها وتقنينها وضيقها وتطبيقها على الإنسان رويدا رويدا، وفق خطاب له بلاغته الأساسية ومعاييرها القانونية وجمالية الوثوقية، وبالتالي يشكل مجموع هذا الأخير سلطة أنتجت معرفة ومعرفة مندغمة في سلطة.

شعر

عندما يأتي المساء	عندما يأتي المساء	عندما يأتي المساء
سنتطوئي الخوف	أرقّ	تحت غطاء
يلفني السواد	يتشوقني الكرى	وتحصره يدي
يلغح السواد جفني	من جفوتي... في استعراب	وجفني
في هجير السهر	ينانكري	شاملي مجبور...
أرتعب	بايتعاد ظاهره اقتراب	في ليلة باردة...
ليالي الصنيف	عندما يأتي المساء	يمس الراح في اكتئاب:
كما	تُظفر...	نادشت البراحة غفوة
يرتقب الأثر	●●●	يا ليلا
حيات الناس	انظر... في تعب	يستدل أرقى
كأن الرّيح تَحْتِي	تأتمد لعلى أنام	ما سرّ اشتغالك عنيّ
عندما يأتي المساء	أرقفها الضُخْب	ولم المصنوقة؟
في شحوب دماغ	أشباحا	استهنتي
استقبل	تداسميا أشكالها	أجْمَدَاري
ليلة جديدة	تجرمها أرجل منْ خشب	أو أصبني بالضم
خفاق الحشئ... في حرقه	تراهق عيناوي...	أجّة انفاسي
أرقب	تأقالت	كوجع العمم
خفق للبل	تحرر بعضها بعضا	ظالم أنت
التسح حَقَّة	تدصح نحوض إصمصل	تحضنتي بصحوك
	لَهْ الكلب	و... نشام
	تري اللأر في أضلعي	عندما يأتي المساء
	والأشباح أهلي وشعيرتي	يعول انتظاري
	اسكب ماء العين...	كأنّ زمامي
	●●●	صمير انتظارا
	أظفنها	ساعات السهد
	يا بني الدمع أن...	يجرمها
	ينسكب	ظلام تيقول
	عندما يأتي المساء	والليل طويل
		طويل

العرب الثقافي

البيولوجيا السياسية بين سلطة المعرفة ومعرفة السلطة (3)

أوهام الوعي الذاتي والشفافية عند ميشيل فوكو

ومن ثم عمدت السلطة السائدة في أي مجتمع ضطم جميع مجالات الحياة الإنسانية: صحية، رمزية، اقتصادية، اجتماعية، سياسية، ثقافية وجمالية... حتى أصبح من المستحيل أن يظل شيء في الحياة الإنسانية خارجا عن مراقبتها ومراقبتها.

إذ تحاول المعرفة بهذا الصدد أن تنظم وتحصي وتوثق وتدوين وتسجل جميع الأشياء المحيطة. ومن ثم إذا كانت العملية التشغيلية وسيلتها في ذلك، فإن السلطة تحاول قدر المستطاع أن تستغل تلك المعرفة في جميع الأشياء، سواء عبر إعداد المصنفات والمودات والسجلات والأرشفيات، كما هو حال دفاتر الوفيات ومسجلات الزواج ودفاتر الحالة المدنية وعقود البيع والشراء وتصاريح السفر والمطافئ المعنطة لها ولحدها اليوم... الخ، ما يحصي كل أسفيرة وواردة من حركاتنا ويبيضض على غنونا وترحالنا. بل إن من نتائج هذا التوصيف والتدوين، إحصاء الأفعال بمراقبة تامة تشمل جميع مناحي الحياة الإنسانية.

وبيت القصد عند فوكو الإشارة إلى اندغام المعرفة بالسلطة، عبر محاولة نقل تطبيقات العلوم الدقيقة إلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية، إذ لم يعد إلا رمزا بين الأرقام والجدول والبيانات والإحصاءات، حيث اتفقت وجوده بتلك التصنيفات والأرقام والبيانات كذات حرة ومستقلة، إذ لم ينطس إحساسه بالأخرين كذوات جديرة بالاهتمام.

بل أصبح الجميع كتابية عن رقم من الأرقام في سلة المتفعية والزعة الاستهلاكية... ما يعنى أن الإنسان في طور الموت البطيء من جراء تطبيقات تلك السياسة الإيجابية عليه.

ومما لا شك فيه، أن هذه الموجهة أصبحت في خدمة السلطة التي بدورها أصبحت على الدوام بحاجة إلى معرفة تعيد إنتاج سلطنتها وهيمنة ثقافتها، فهي لا تتسوي شيئا دونها ما ذات في حاجة ماسة إلى خبرتها لتنظيم وضبط حركة المجتمع بدوى أنها القيمة عليه وهي الساهرة على أمنه وأمانته... كما نشأت عن تطبيقات تلك العلوم في جميع مجالات الحياة الإنسانية محاولة إخضاعها لها كليا، سواء بغاية تنظيمها لتنظيم الحكم الدقيق أو بغرض أن تتحكم فيها تحكما مطلقا وطريقة شاملة.

وصفوة القول إن ذلك ما يقفنا إلى جوهر فلسفة فوكو، إذا لم يكن ذلك بمثابة المقدمة التي بواسطتها يتم الكشف عن كيفية تسخير السلطة للمعرفة بجمع أعضائها من أجل ضبط المجتمع وتخلطه حتى لا تفقد السيطرة عليه. وهذا التنظيم والحكم في وضع معايير وقوانين ونظم وضوابط (صنع لغة عامة يبين بها الناس) تحق جميع الجهات المهمة عليه يضطلع بمهمة التمييز بين ما هو عادي وغير عادي، السوي وغير السوي، العاقل الذي يمتلك وعيا والأحمق الذي فقده، كما التمييز بين الصحيح والمعوج أو بين المرض والسليم... بما يحقق توازنا معياريا للحياة المرغوب فيها من طرف السلطة ويؤدي لتأنيها المطلوب الذي تريد فرضه في المجتمع.

بيد أنه لا يفيق أن فضلا بهذا المقاسات، هو كتابية عن سلطة قائمة أو متخفية، لكنها بهذه الطريقة تنتج ضرورة التماثل لمضادة لها في نظر فوكو، إذ ما الذي يمنع ذلك الأجمع على النسان في المجتمع من أن يصبح حقيرا وضعبا، ذلك الحقيق الوضع أن يصبح عظيما؟ كما أنه في مجال السياسة، يمكن تطبيق المثل الشائع: ولو دامت لغفرك، ما وصلت إليك، ما يطرح السؤال من جديد عن حقيقة من يضع هذا الفصل المزيف في الحياة الاجتماعية، وإين يمكن الحدود بين هذين العالمين (عالم القوى والضعف، عالم العاقل والأحمق، الأساسي والكمالي... ومن يتحكم في القوانين والمعايير...؟)

بالإضافة إلى ذلك يتسائل ميشيل فوكو بالمقاييس إلى تجارب الإنسانية ذاتها، إن كان وراء هذا الفصل فخر مخاض ومخاطر لغرض في نفس يعقوب، يحجم أن يتكلم ويفصح عن أغراضه ومصالحه؛ بل إن أكثر هذه التناقضات المعيرة عن هذه الأيديولوجية: العقل والنقل، العقل والقلب، الروح والجسد، الإمالة والمعاصرة، الشرق والغرب، التراث والتحديث، المرأة والرجل، العاقل والأحمق، الخير والشئ إلى غير ذلك من التناقضات... ما هي إلا محاولة لتعميط الحياة الإنسانية بإحكام القفصة عليها وحبس وعقيم وتنميط السلوك الإنساني المتحرر أو ذلك الذي يمكن وصفه في خاتمه ما، مما يؤدي بالضرورة إلى خلق تثيرات مزيفة، أي سلطة قائمة على الترويض عبر مؤسسات العائلة والسينون والمستشفيات والمدارس والمعامل والكتكأت... إذ تكفي الإشارة إلى أن ما كان في تعداد الحقائق المطلقة في عصر ما، استحلال وهما وأضوحته في عصر آخر، كذلك هو شأن الحقائق السياسية والاجتماعية والجمالية التي يتم تعليلها هنا وهناك وفق هذا الأيديولوجيا أو تلك.

علاوة على ذلك يلتفت ميشل فوكو إلى معالجة الهيكل الذي من خلاله يتم تسويق «حقائق» السلطة بياس شديد أو بإغراء لا يقاوم، لا فرق، فيفسر إلى أن ما يجمع جميع مؤسسات السلطة الجزرية والترويضية معاهاها الهندسي، لأنها أقرب في تقاسيمها إلى هندسة مؤسسة الحجر التي يعد السجن أبرز من ممتلكها. ذلك أن ما يهم فوكو هو التأكيد على أن تلك المؤسسات محاطة بأسوار عالية تحجب الرؤية عن ما يجري داخلها، توزع فيها حجراتها وفق تنظيم دقيق من فروع في الشكل لا في الجوهر. إذ لا يخفى أن كل هذه المبادئ الترويضية كانت مسجية، فهي تحجب القابع فيها عن العالم، وتحصر حركته وتضيق عليها إلى بعد حد



غلاف كتاب «المراقبة والمعاقبة»

ممکن لغة وهنداما وتفكيرا، حيث لا يجب أن نتعتقد أن سبب بناء السجن كان في غايته الأولى، حماية الغلاء والشرافة والأبرياء من أسرار المجتمع فقط، فهي أيضا موضوعة بغاية حبس تلك الأفكار والسلوكات المتحررة على النظام السائد. لذا فهي بالحفاظ على نظمتها ومعاييرها تحاول قدر الإمكان ترويض جميع الأسياد، إن من داخل تلك المؤسسات يتم الإعلان عن نتائج تفصح عن ما هو مقبول وما هو ممنوع، ومن ثم هيمنة سلطة قيمه وأخلاق يعينها في المجتمع.

وحرى بنا أن نعرف القصد الذي يرمي فوكو تحصيله من خلال تأمل تناقضات القيم والنظم والمعايير عبر التاريخ، سنجد أن ما تم ارتكابه فيه فتلأخ كثيرة، لا يجب أن نتجنب عنأ الحقيقة ونجعلنا نضم الأزان عن سماع آفاح المعنيسين في الأزمنة ومعرفة حجم الكوارث التي خلفتها فحاح هذه التناقضات من هيمنة والاستغلال وتعذيب وسجن وماس وإغتراب وتمزق وضياق وإقصاء باسها. وهذا لعبري فمة الإضحاخ عن ما هو خفي في تلك المؤسسات التي تضطلع بوبرين متناقضين، بحيث يتم استعمال المنوع لخدمة المسحوق به، وكان المجتمع بحاجة إلى نمد الحرجين والمخربين ومعاقلبة العاصين لكي يؤسس معايريه ونظمه على مجامعهم، دون أن ننسب أن هذا المجتمع دائما بحاجة إلى هذا المخرف لأنه عاجز عن منع أو إيقاف أشكال الإحراق فيه، ولكي يعلق على مشجبه عزبه وإخفاقة بعضا.

إذ يخفى أن يفتخر كعبا لهذا هذا المجتمع ذاته إلى التفنيس سرا... وكان ذلك من خلال السماح ببيع الكسور والمخدرات وتعاطي الأدوية والقمار وبيالاتجيا في الأعضاء البشرية وتشتليل الأطفال... أو التعاضى عنها عمدا... لتبغادى بذلك انفجار المجتمع ووقوع السقوط على أصحاب ما يدعون ملكية البيت بما فيه من الرقاب والعباد، غاية فوكو أي أن يحذر من أن تزايد ضبط المجتمع ومراقبته، كما محاولة تعميم السلوك والأنواق وتعزيز أشكال الرقابة المادية والرمزية عليه، سواء عبر تكثيف الإراء وتدجين العقول أو ترويض الإحساد (ما نشاهده اليوم بوثرة متسارعة)، ينذر بان يتقلب هذا التحكم الأرعن ضد المرجو منه غالبا.

فضح أوهام الذاتية

ما من شك في أنه بوضع المؤسسة الاجتماعية موضع اتهام، يروم ميشيل فوكو فضح أوهام الذاتية ووضع قدرة الذات بوصفها عنصرنا أساسيا في هذه المؤسسة موضع سؤال، لأن مجال عنده للحدوث عن ذات بوعي شفاف تمام الشفافية، بل الوعي عنده يجب أن لا يفتقد عند مسطح الأشياء، بل عليه أن يبدأ من البحث عن ما هو متخف بطبيعة فرد واعية فيها، وما يلازمها من ضعف وقصور ونقص على حد سواء.

بالمقابل تقطع هذه الفكرة مع الإرث الديكارتي الذي يعتبر الذات أس المعرفة: «نأسا أفكر، إذن أنا موجود»، ما نجسم عنه تعزيز مكانة الخاصة للروح على حساب الجسد كما أسلفنا. فالروح أصبحت بموجب ذلك موطن التسمسي والفكر ورمزه اللامتناهي على حساب الجسد الذي أصبح نغاية للمكوشات ومبني النوافع والغرائز، ما ليس معه مستقر ولا مهان، فهو بهذا المعنى دنس وماوى للاثم وألغز والريغة والشهوة والإحتراف والجريمة.

والفرد تعفنت القطعة على وجه التعصيف بين عالم رذيلة يعمله والجسد وعالم فضيلة تظهله الروح، حتى استعيلن الإنسان داخله الجسد كرتيلة، يجب أن يحذر استفواعه وشهوته، لأن الروح هي ودعها الجديرة بالاهتمام، نظرا كونها راعية الأسرار القفسية والسدة الحقيقية. أما الجسد فهو مجرد نغاية تغري ومغرى لذة عابرة وبؤرة منحلّة، بينما الروح لا تلى ولا تقبسد، فهي الأصل الذي لا يتزعزل.

سيزيف

والثوم يخلل	انثى... تحت غطاء
يخلل	تحصره يدي
عندما يأتي المساء	وجفني
على الجدران	شاملي مجبور...
ينطلق السقف	في ليلة باردة...
...لم أكن	يمس الراح في اكتئاب:
وحداً وخداًتي	نادشت البراحة غفوة
ينتاني	يا ليلا
شبه احتضار	يستدل أرقى
تنض	ما سرّ اشتغالك عنيّ
يعدّ الأرق	ولم المصنوقة؟
والزئزات	استهنتي
تحرق الأرحمى	أجْمَدَاري
يوفض صداها الوثنى	أو أصبني بالضم
كأنّ بي أطراق	أجّة انفاسي
كأاد انترخ	كوجع العمم
ترامع يسامون؟	ظالم أنت
ترامع يستيقظون؟	تحضنتي بصحوك
يصمقون عندما...	و... نشام
لا تزد في لوعي	عندما يأتي المساء
لا تتركز بعذابي	يلوح من بعيد
عندما يأتي المساء	يلفح جفنا... لا ينام
من الكرى...	عندما يأتي المساء
سكابي	عندما يأتي المساء
منكبي	أمام الشائنة
مقرّ جفني	حقن... سلالن
حقة	أسدل رمشا
توت... في... أهلامي.	واتنح عينا
	أعدّ الساعات
	ترهقني...
	رؤى أمة تتكلم
	الحضيين مهادها
	بين الحثثتين

العنوان الإلكتروني للقسّم الثقافي في «العرب»

يرجى من الراغبين في متابعة القسم الثقافي في صحيفة "العرب" إلكترونيا توجيه مراسلتهم إلى العنوان الإلكتروني التالي:
thaqafa@alarab.o.uk

عنف رمزي

التاريخ الرسمي يجر معه وإن رفض، تاريخه السري الذي يكشف أن وراء عنفوان السلطة وبريقها الزيف، هناك تفاصيل تبتئنا حقيقة كيف كان المشهد الأول في مسرحة تاريخ البشرية الأسن وأن ما تخلله من أفكار نيرة التي ما زالت حية بيننا هي في الحقيقة، تاريخ قطع أوصال وبق عظم، مرفوفة بفسخ الأيدي والأرجل وصلبها على أبواب المدن، حين كانت مشاهد القتل تنتهي بالتمثل بالبحث باليداء السجحاء والأسرى في أقفاص سباع أو في برك تصاسح ضورها الجوع للتمناسية اامادا طولية.

هكذا كان حال «روما» و«دششق» الاموية و«بغداد» الغيباسية وقاهرة، والمليك والاستانة، العثمانين ولا عجب، ثم كيف أتت العصور الإقطاعية الغربية بصورها الرهيمة، من محاكم تفتيش وصور المنصّة والجدال والمدعي السذي يلقي الحكم، حكم حاكم غالب حاضر، يذكر المذنب بسلطة القوة وقوة السلطة، حيث يقدم فوكو مشهد المسرحية الأصلي للسلطة حتى تتعرف على فطاعتها وتخرج جرة الأثم مما كان يجري ويدور.

إلا أن هذا التعذيب إذا كان كتابية عن نفى الجسد بالإيابة، فما يراد التصف عنده بالتحديد من خلال سرد وقائع وكص يعينها هو أن أي تعد على قانون الملك هو تعد على جسد الملك، مما يستوجب إعادة الهيبه له عبر تطويع الإحساد جميعا، ليصبح التعذيب بمثابة الآلية التي تعيد الحق لنصابه وللسلطة يمينها وتمنع أشن منها أو التناول عليها.

عنف رمزي

غاية فوكو أن لا يشير إلى التعذيب والعنف بالمعنى المطلق، عسر ما وقع من قطع رقاب وجدل أو بتر أعضاء، فحسب بل كيف تطور العنف المادي إلى عنف رمزي بوصفه اليات تاديب وإضحاخ وتطويع وتدجين، حيث تنتقل من ساحات الإعدام إلى السجن والكتيبة والمظلمة، إلى الانتقال من تاريخ الدم الأحمر القاني الذي كتبت بها أمجاد البعث ويؤس الأخرين إلى كتابة تاريخ الدم الرمادي لروح السجنون كما يقول جيل بولون، أي من تعذيب الجسد إلى تعذيب الروح. والقصد من ذلك الوقوف عن قرب أمام السلطة، وهي عارة لا تناع تذرثر به وبن مساحيق تخفي به تجاعيبها، لانه ليس هناك من يسجل آخر لغيم السلطة في الحاضر إلا بالتشفي ما مضيا، لكي نعي حجم التناول الذي وقع لها في تطويع الإحساد وترويضها، فكما لتحل إحساسنا الأخرين إلى كتابة الإحساد المتروية وعيقها والإمها والمهابة، تحمل السلطة الحديثة من السلطة القديمة شيئا من فطاعتها ونعفها.

واعود لأصول باختصار وتيسيد كما كانت السلطة قديما تسعى لإليات قوتها بالإيابة، فهي تسعى إلى أن تظهر رقيقة وساهرة، ملتها مثل عن الأم الحنون التي لا بغضض لها جفن، يدعى حماة المواطنين وتأمين راحتهم، لكن ذلك في نظر فوكو، لا يعود أن يكون تطورا طرا في الشكل، لا في المحسور، ما دام ذلك زال يدس ترويضها وتطويعا يلي بالمطلوب ويحقق المراد.

وهي حاضرة تمارس صلفها المهود عبر التاريخ، سيما وهي في حالة الإجهاز على جسد فرد أو تكويم اقواه تعارضها أو أقلام فتاونها وتضامسها أو تنمرد عليها. آنذا، لا محالة تستدري كيف سبقت فقاها الرحيم وتكتشف وجهها التميم، إذ تستدري كيف تدور طاحونة العنف عبر عابثة مذذبات الأخرين.

وجيناتك تستدري كيف يبئن الجسد تحت وطائها حاملا صورة قديمة/جديدة: سجن كبّن ويحرج الفيولات من ناحية، وجسد يترمو في تعذيبه منتشيا من ناحية أخرى.

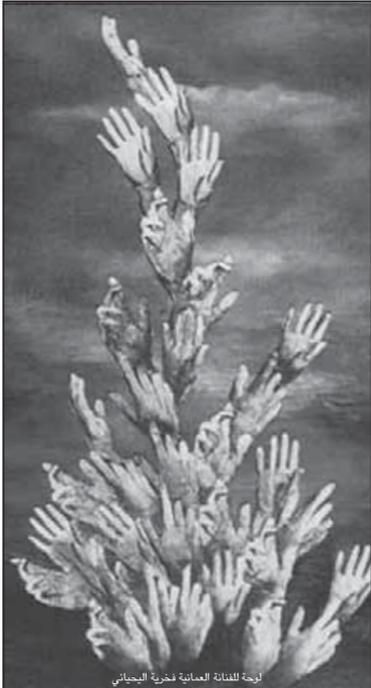
والجسد بهذا المعنى صورة لتقاطع جسدين، أحدهما يعقل جسد القوة والحضور، والأخر جسد الضعف والغياب. ومن ثم يعرج فوكو في رسده نماظر السلطة قديما أو حديثة، فأقديمة كانت تمارس هيبتها ببق السمار في الأسياد تاركة إياها في حر الشمس لتأنيتها الغريان، بينما في اليوم تمارس هيمنتها وقوتها وإعادة إنتاجها بالثديين والعزل والحجز والتمتع والمراقبة والتحرير، سواء في المدرسة والعبادة والمصحة العقلية والنكتة والمصنع أو السجن، ولعل فوكو في رسده هذا، يريد أن يقول لنا أحذروا السلطة، أي سلطة، فالتعذيب ليس كتابية عن الجلد والسياط فحسب، بل يبدأ من مداهمة حق أي جسد في الاعتراض والرفض. والسلطة بذلك التدخل العنيف، تريد أن تسدد لنا خفية ما هي الحقيقية وما هو الضلال وبين هذا وذاك من يستحق العقاب أو النواب.

بيد أن السلطة في حالة التعذيب الرمزي عمق يتجاوز التعذيب الجسدي في حد ذاته، فهي من ناحية إيات التعذيب الفكري وإتكار لجسد الضعيف في الحياة والإختيار والحرية والفكر المحصر، والجسد بهذا المعنى كتابية عن جسد متمرد وجسد هيمنة. الأول ينزع للثورة والثاني رمز كعب هذه الثورة.

بل إن القصد من فمع هذه القوة المتمردة وكبحها وتجريدها من قوتها تعطيها من الأرادة والحرية والفعل، حيث إن تحولها هذا الجسد المشاكس إلى جسد واهن لا حول ولا قوة له، يحقق قوة السلطة بحرمان الأخرين وتعطيل إرادتهم وقوتهم. التعنيف والإحزر الحديثان هما في حقيقة الأمر تعديل وتطوير للإبتي الحجب والانقسام القديمتين اللتان يحدّ تنقيدهما في الساحات العمومية والباحث. فهو انتقام من نفس الجمهور الذي كان يُجلب في الماضي والحاضر لمُساعدة تفاصيل هذه المسرحية المرعبة، على الرغم من أنه في الحقيقة يبقى المستهدف الحقيقي من مسرحية إنزال العقاب أو التعنيف بؤلاة المتضررين، حتى لا يتخالون بدورهم على قوة السلطة وهيبتها.

كما أن لُزائلها العقوبة القسوى بذلك الجسد الفرد، استهداف رمزي لإحساد الجمهور وقاية السلطة من عدوى أي خروج عن سُلطتها.

باحث جامعي، مركز تاربخ أنثى الفكر المعاصر
جامعة السوربون



لوحة للفنانة اللبنانية فخرية البجاني

فلسفة

البيولوجيا السياسية بين سلطة المعرفة ومعرفة السلطة (4)

تكنولوجيا الرقابة الاجتماعية في أعمال ميشيل فوكو الفلسفية

حسن الصدق

ياواصل حسن الصدق في دراسته «البيولوجيا السياسية» بين سلطة المعرفة وسلطة العنف بمقاربة صورة باطنية كاملة بتصور لاوعي ميشال فوكو(1926 - 1984) في أبحاثه وكتابه حول الذات والأخلاق والسلطة والعنف والحرية والتي أثارت العديد من الاعتراضات والآراء كثيرا من اللغز والحجج، ويخت القناعاء لا سيما بإعلانه فكرة موت الإنسان مشهورا بالآليات الجديدة التي تتداخل فيها السياسة والبيولوجيا، الأولى تتحكم في المجال العام والثانية تتحكم في الأبعاد.

وأصبحت السياسة الأجنبية «الجوية» هي «الوسيلة الجديدة الفعالة للرقابة الاجتماعية الحديثة، بل إن مجمل هذه التقنيات الجديدة موضوعة علىيات وظيفية محددة منذ أن ثورات مشاهد التعذيب في المساحات العمومية».

وتكتشف هذه الحلقة الرابعة من الدراسة عن بعض «سمات المراقبة الضبطية في المجتمع الحديث وتحليلها في بناء أشكال هندسية دائرية محاطة بأسوار وعبر شبكات تمتد طولا وعرضا في المجتمع»، وهي تدعى في الوقت ذاته «أنها لا تضطلع بوظيفة غير وظيفة تعليم الناس إصلاح أخطائهم وسلوكهم وطيابهم وتثقيبهم وحمائيتهم، حتى يتم تحقيق فضاء اجتماعي منسجم».

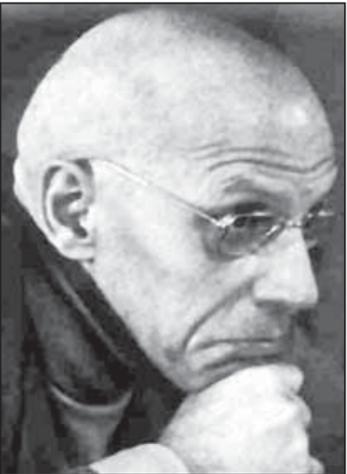
يخلص الفيلسوف ميشيل فوكو إلى اعتبار المنحرفين والمهشمين والمجرمين ودعاة العنف بمثابة صورة باطنية كاملة بتصور لاوعي المجتمع وأعرافه الثانوية، فهذا اللاوعي الذي يتم كتبه، سرعان ما يتفجر في وجه من قنوده ليغتالوه في حرته ويرهبهم كما أربوه. إذ لا يمكن لأحد طواهر اجتماعية فحسب، بل هم حقائق اجتماعية وإنسانية للمجتمع نفسه بامتياز، كما إن انزلال العقاب بهم، لن المهني مخض ظواهر اجتماعية فحسب، بل هم حقائق اجتماعية وإنسانية للمجتمع نفسه بامتياز، كما إن انزلال العقاب بهم، لن يستأصل هذه الظواهر بل ينذر بانفلاتها وانتقال العوى، عوى الولد والرء المضاد فالعنف الذي تعارضه السلطة من أعلى قد يتقلب عنفا أقوى وأشد من أسفل. لذا لا مندوحة من الاعتراض أف بانهم يشكلون وجهها الحقيقي المزخرف ولوحة معبرة عن امراضها ضاقت أم أبى.

أدت أزمة المنوذ وبؤس المهشم ومرض الشناذ واعوجاج المنحرف وذنن المجرم وغلغ الغلغ، حقيقة انكراها المجتمع وعينها الجميع، لتكتف وتوسع غسغسليا وخير من يقضى أسرارنا الفاضحة التي تسعى ليجيح وتكتفها والتمسقر لعنف، «المجنون، عندما بهذا المعنى هو من يوبح حقيقة، «العالم»، «المعلم»، هو من يقضى بسر «السوي»، والشناذ، هو من يعزى عوج المستقيم، وتناقضته، هم الأخرى إن، فهم امراضنا المخلفة والمكبوتة والسريفة.. هم

بؤس الحقيقة وحقيقة البؤس اللذان يضعان المجتمع أمام المرآة دون الخنقة ولا بهرجة ولا مساحيق... وهذا الوعي بالجنس من خلال عرض أعراضه المرضية (الشذوذ والجريمة والالتحرف والتهميش والاعتصاب والعنف) يكتشف لنا حقيقة ما نحن عليه، وظيفية السلطة الوافقة على رؤوسنا، حيث نسرى ما لا نرى فيه وتمريد أن نخفيه. لكن هذه العبق والمثل التي حاولت السلطة الاستبدادية أن توهمه صديقتيها ومصداقيتها استساحت أكابيد وأوامها وتداعيات واعراضها دفعت المجتمعات ثمنا باهظا لسهوتها علينا..

إحباطا، يفرض أن التاريخ الحقيقي ليس هو ما يُؤوّن وتحتفظ به المسجلات الرسمية، بل هو تلك الأبناء المنائرة والسيطرة والأحداث اليومية التي لا يلتفت إليها أحد. ومن ثم يجبر تقويض ذات-السلطة أو سلطة الأداة -من ناحية، كما سلطة المجتمع ومجتمع السلطة في تاريخ الفكر من ناحية أخرى، لأن القول بمركزية حقائقها ومطقتيها مجرد وهم جميل ولا فائدة يرجى منها على المدى المتوسط والطويل. فالبحث عن حقيقة المجتمع وعمويه لإصلاح امراضه يبدأ من تاريخ نوات تلك الفغات المنبوبة والمهشمة والطلوحة والخلفة والمعدية، التي على الرغم من الخيبة والحجب واللامبالاة بادية للعيان وفي كل مكان، حيث نلثك التعذيب علامة على حقوقنا السياسية الحقيقية وامراضه المزمنة وما به من ذوات مزيفة، فما نستحضر أن ثمة مفكرين قلائل أخذوا على عناقهم البحث في ما انكروه المجتمع من الطمانيات الجموع المحرومة والذوات المخلطة في مساحات المهشمين والمجنونين والجرميين والصعاليك والقسيسين والكنبيين، حيث أصبحت تلك الحقائق الغمبية عبارة عن لاوعي المجتمع وأسرارها الفاضحة والمكبوتة، فالقرن لا يعود

العرب الثقافي



الفيلسوف الفرنسي الراحل ميشال فوكو

يبقى من الصعب جدا حصر مفهوم «الرقابة» في أعمال فوكو، حيث لا نجد استعمالا أحاديا أو تطبيقا وحيدا له بقي الماراد، فالمصطلح غني بتعدد استعمالاته وتبايناته الممكنة، ويمكن القول إنه متعدد الدلالات بتعدد الاستعمالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغير مستقر على دالة بعينها، مما يجعل منه جنسا قائما بذاته يسع قولب شتى. لكن لا بأس من القول بدائية إن السلطة -والرقابة بصفة خاصة- ليست مجرد نظام ونجاح السلطة كما هو شائع، ولا يمكن حصرها في ذلك فحسب، فهي عنوان كيان شريد ليس له حمولة واحدة ويعينها في التاريخ، ومن ثم يرى فوكو أن المجتمعات التي تستغل آليات رقابية أو وسلطة الضبط تستغل هذا المصطلح بطريقة تجعل منه مرتبطا بالضبط بجميع مجالاتها الحياتية، حيث يتم النظر إلى المراقبة باعتبارها مجموعة من التقنيات مستقلة بذاتها، والرقابة بهذا المعنى فوالة تتجدد كل مرة بشكل معين، فهي تارة تكونتحت انتقاد واعتراض ومقاومة، وتارة أخرى بمثابة الوسيط الضروري للوصول إلى تحقيق النظام، مما يجعل نظرة فوكو متميزة عن مسائر نظريات الضبط الاجتماعية التي حاولت تبرير وسلطة المراقبة الاجتماعية من خلال وظيفتين أساسيتين:

- الوظيفة الأولى تختص بصورة من صور الصراع في المجتمع، وتكون الثانية ترى المراقبة كصورة من صور الصراع في جماعة معينة ضد أخرى. غير أن فوكو في هذا الصدد لا يفضل أيا من هذين التفسيرين الوظيفيين، بل يجاهر برفضه لهما، نظرا لأن سقف التبرير المقدم يظل أخلاقيا بالأساس، وبالتالي يحول دون الوصول إلى رؤية شاملة لجميع ظواهر «المراقبة الاجتماعية الواسعة» التي تراه شبد على ضرورة إصلاح هذه النظرة الوظيفية الضيقة لكي تتمكن عقيدات، وبالرجوع إلى النصوص فوكو التي تتجوز حول هذا الموضوع، سنجد أنها معروضة في كتابه «الرقابة والمعاقبة، وفق خاصة مزوجة، حيث يمكن اعتبار المراقبة نتاجا للمؤسسات من ناحية، ومستقلة عنها من ناحية أخرى، كما يمكن أن نصف أيضا ما ورد بشأنها في كتابه المعطلة «تاريخ الجنس» (ثلاثة أجزاء) وأخر دروسه التي القاهها في الكوليج دو فرانس -غير منشورة- التي ينهت إلى مجمل الرهانات الأخرى المتعلقة بالرقابة الذاتية التي يتم تصنيفها ضمن خاتمة التحكم الذاتي بالتفصيلات

الرقابة كإن شريد

يبقى من الصعب جدا حصر مفهوم «الرقابة» في أعمال فوكو، حيث لا نجد استعمالا أحاديا أو تطبيقا وحيدا له بقي الماراد، فالمصطلح غني بتعدد استعمالاته وتبايناته الممكنة، ويمكن القول إنه متعدد الدلالات بتعدد الاستعمالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغير مستقر على دالة بعينها، مما يجعل منه جنسا قائما بذاته يسع قولب شتى. لكن لا بأس من القول بدائية إن السلطة -والرقابة بصفة خاصة- ليست مجرد نظام ونجاح السلطة كما هو شائع، ولا يمكن حصرها في ذلك فحسب، فهي عنوان كيان شريد ليس له حمولة واحدة ويعينها في التاريخ، ومن ثم يرى فوكو أن المجتمعات التي تستغل آليات رقابية أو وسلطة الضبط تستغل هذا المصطلح بطريقة تجعل منه مرتبطا بالضبط بجميع مجالاتها الحياتية، حيث يتم النظر إلى المراقبة باعتبارها مجموعة من التقنيات مستقلة بذاتها، والرقابة بهذا المعنى فوالة تتجدد كل مرة بشكل معين، فهي تارة تكونتحت انتقاد واعتراض ومقاومة، وتارة أخرى بمثابة الوسيط الضروري للوصول إلى تحقيق النظام، مما يجعل نظرة فوكو متميزة عن مسائر نظريات الضبط الاجتماعية التي حاولت تبرير وسلطة المراقبة الاجتماعية من خلال وظيفتين أساسيتين:

- الوظيفة الأولى تختص بصورة من صور الصراع في المجتمع، وتكون الثانية ترى المراقبة كصورة من صور الصراع في جماعة معينة ضد أخرى. غير أن فوكو في هذا الصدد لا يفضل أيا من هذين التفسيرين الوظيفيين، بل يجاهر برفضه لهما، نظرا لأن سقف التبرير المقدم يظل أخلاقيا بالأساس، وبالتالي يحول دون الوصول إلى رؤية شاملة لجميع ظواهر «المراقبة الاجتماعية الواسعة» التي تراه شبد على ضرورة إصلاح هذه النظرة الوظيفية الضيقة لكي تتمكن عقيدات، وبالرجوع إلى النصوص فوكو التي تتجوز حول هذا الموضوع، سنجد أنها معروضة في كتابه «الرقابة والمعاقبة، وفق خاصة مزوجة، حيث يمكن اعتبار المراقبة نتاجا للمؤسسات من ناحية، ومستقلة عنها من ناحية أخرى، كما يمكن أن نصف أيضا ما ورد بشأنها في كتابه المعطلة «تاريخ الجنس» (ثلاثة أجزاء) وأخر دروسه التي القاهها في الكوليج دو فرانس -غير منشورة- التي ينهت إلى مجمل الرهانات الأخرى المتعلقة بالرقابة الذاتية التي يتم تصنيفها ضمن خاتمة التحكم الذاتي بالتفصيلات

يجعلها كتابة عن نظام مراقبة اجتماعية حديثة الذي أصبح مهيكلًا ويتمتع بفعالية كاملة، ويستعمل أدنى التكاليف لكي يحصل على أكبر العائدات، كما تم تصوره بالفعل من طرف الفيلسوف بنجام راند التقنية. فالبحث في نجاعة المراقبة أصبح بمثابة المبدأ الذي يقوم عليه تنظيم المجتمع الحديث بجمع مؤسساته دون استثناء، بل من إحدى ظواهر اليوم ما سماه عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر بظاهرة البيروقراطية التي تعد أحد أشكال الضبط الحديثة في المجتمع.

المجتمع الصناعي الوليد

وهو ما يلتفت إليه كثيرا فوكو، لأن عين السلطة التي لا تنام تتوجه إلى التحكم في فضاء الأفراد القريب منه أو البعيد، حيث هي حاضرة في كل مكان: المدينة والقرية الحي والأسواق، المدرسة، الشارع، المستشفى، ومله جرا، وهو ما يستدعي وتقضي تطوير تقنيات مراقبة خاصة بكل هذه الفضاءات، الأمر الذي يعنى أن مجتمع السوق الرأسمالي هو في واقع الحال مجتمع مراقبة بامتياز. إذ بحلول الهندسة المعمارية الحديثة المنقطعة في البنائات الحلزونية أو الدائرية (Panoptique) في القرن التاسع عشر، أصبحت المراقبة الاجتماعية غير مرتبطة بحق الحاكم المطلق في نزع الحياة، بل مقفنة بؤسسة تحافظ على الحياة المدنية. وفي هذا كناية عن أن الأفراد في هذا العصر خولوا المؤسسات حق تدبير حياتهم ذاتيا، كما تدبير الجماعات بواسطة معايير وقوانين ونظم.

ومن ثم أصبحت السياسة الأجنبية «الجوية» هي الوسيلة الجديدة الفعالة للرقابة الاجتماعية الحديثة وتنظيمها، بل إن مجمل هذه التقنيات الجديدة موضوعة لغايات وظيفية محددة منذ أن ثورت مشاهد التعذيب في المساحات العمومية. علاوة على أن سمات المراقبة الضبطية في المجتمع الحديث تجلت في بناء أشكال هندسية دائرية محاطة بأسوار وعبر شبكات تمتد طولا وعرضا في المجتمع، مدعومة أنها لا تضطلع بوظيفة غير وظيفة تعليم الناس إصلاح أخطائهم وسلوكهم وطيابهم وظيفية وتثقيبهم وحمائيتهم، حتى يتم تحقيق فضاء اجتماعي منسجم.

ومن بين أهم الوظائف التي تم تحديدها لهذه المؤسسات، وظيفتان أساسيتان: - تتحصر الوظيفة الأولى في وضع «استعمال الزمن» بغية مراقبة غنود ورواح الأفراد، بنجام. - ثروم الثانية مراقبة الأفعال، مراقبة دقيقة وتامة. وهو ما يمكن الاستدلال عليه بوضوح توقيت فتح الأسواق والمدارس والمستشفيات والشركات والإدرات العامة لأبوابها ومواقف إقفالها، في المقابل أصبحت الوظيفة الثانية تهتم بالجنس من خلال الصحة ورعاية النسل وتنظيم شؤون العرعرن والنفقة ومعالجة الأوبئة والحد من الوفيات المبكرة للأطفال وحملات التلقيح... ذلك إن الغاية من استعمال آليات السياسة الجوية -الأحباطية- إحكام نوع جديد من المراقبة الاجتماعية على المجتمع الصناعي الوليد، حيث يستعصر ميشيل فوكو في هذا الباب مختلف الصنع والنماذج التي نظمت الحياة الاجتماعية عبر العصور، واختلاف كل واحدة منها عن الأخرى. كانت تتم عبر امتلاك الحاكم المطلق رقاب البلاد والعباد واستعماله لهذا الحق بشكل مطلق في فرض هيبة السلطة (بمعنى فوكو هذه المجتمعات اجتماعات سيادية). ثم لتتها حقيقة تختلف فضاء، تم تسديتها «مجتمعات الضبط» التي طبع مبداء العهد الصناعي، وبدائية الرأسمالية، والتي تختلف بدورها عمّا تلاها من بشاء «مجتمعات الرقابة»، في الحقبة المعاصرة.

* باحث جامعي، مركز تاريخ أنظمة الفكر المعاصر جامعة السوربون

داخلها: (السجن، المدرسة، المعمل، المستشفى). فالتأنيء الحلزوني الذي كان الفيلسوف جرمي بنجام وراءه، لا يعنى أنها بنائية مستطع من خلال تصاميمها الهندسية مرأقية المنزدة من تحركات السجناء (عين مركزية قادرة على أن ترى كل شيء وفي لحظة واحدة)، بل يود فوكو الإشارة إلى مبدأ التفتيش. ومبدأ التفتيش نجده معروضا بشكل مستغضب في نصين مختلفين للفيلسوف جرمي بنجام راند المدرسة النفعية وأب القانون الدستوري البريطاني دون مازاغ، الأول كتب سنة 1786 وهو عبارة عن 21 رسالة جمعت في كتاب (Panopticon) تم نشرها سنة 1791. وهذا النص تترجم من طرف صديقه الفرنسي إتيان ديمون ليتم نشره وفق قرار الجمعية الفرنسية الثورية سنة 1791.

والمهم هو أن البناء الحلزوني أو الدائري الذي تم اعتماده وإقراره من المجتمع الصناعي الوليد، يعد بمثابة رمز لمجتمع المراقبة الذي بدأ باختراع مؤسسة الشرطة تحت لويس الرابع عشر، فالشرطة هي الآخ الثؤام للبناء الحلزوني. وهي تؤمن النظافة والسيهر على أمن المدينة وتسهر على إمدادتها من المؤن والمحاصيل والمواد. فالشرطة بهذا المعنى: تسترف على مجالات التحكم في «الحياة المدنية». وكان أول قانون منظم للشرطة إبان ظهوره سنة 1795 يحتوي في بنوده على مواد تنظم بيع الحبوب الخ.

والمبدأ في حد ذاته ليس جديدا ولا يعد تغييرا وإدخاليا زمن نشر الفيلسوف جرمي بنجام نضه الأول، فلقد كان أمر إصلاح النظام القضائي والسجون حديث الشارع آنذاك، خاصة ما تم عرضه في مدونة جرانم وعقوبات، لصاحبها بكاريا (Beccaria)، إذ أن مشروع بناء بنايات محاطة بأسوار عالية تمكن من مراقبة كاملة للأفراد داخلها يرجع الإهتمام به إلى ما قبل كتابه (Panopticon)، حيث كان السؤال الذي يتسلق بال الراغبين في الإصلاح من البورجوازية الصاعدة للحكم آنذاك يتحور حول كيفية الحصول على سلطة رادعة باقل تكلفة في وسائلها وتقطع مع المشاهد الغلظية السائدة في الحقبة الإقطاعية، لكنها تكون قادرة في نفس الوقت على القيام بالمراقبة الدقيقة والتحكم في المجتمع.

ومن بين هؤلاء المهتمين جميعا، استطاع الفيلسوف جرمي بنجام (Bentham) أن يقدم هندسة جديدة تمكن من بلوغ أهداف إصلاحية ترومها في نظره. بإقل تكلفة ممكنة، بحيث استطاع أن يقدم نموذجا ترومها تم تبنيه في العالم قاطبة، وهو ما أوله ميشيل فوكو اهتماما بالغا، معتبرا إياه «حدنا في تاريخ الفكر» بامتياز. فعبر هذا الشكل الهندسي الحلزوني «الدائري» سينشأ أول فضاء رسمي منظم للتربية والتقويم والتثقيب والحبس والعزل، حيث تم لأول مرة الاستغناء عن الأقبية والسراديب الكالحة والصلبان والمخارق، لأن العصر كان عصر النهوض بقرع عصر الأنوار واقتصاد الرأسمالية التي تقضي حسن التدبير لموارد الدولة واستغلالها بتشفافية.

هذا دون أن ننسى أن إنجاز تصاميم مشروع البنائات الحلزونية بوضوح مؤسسات حديثة للتأهيل والتربية والزرية والإصلاح والضغط 20 عامه سنة متتالية، كما تلفك جرمي بنجام أموا إلا باهظ غير أن المشروع لم يلقى ترحيبا من الملكية البريطانية، لأنه كان مشروعا إصلاحيا بامتياز. غير أن الاعتراف سساته سريعا من الجمهورية الفرنسية الوليدة التي رأت في أفكاره الإصلاحية قطعة من إرث الإقطاعية والمصاطها البائدة من نظم وقوانين، بل إن الثورة الفرنسية منحتة الشخصية الفرنسية تقديرا له لما قدمه من خدمات جليلة للشيرية. والمهم أن مصطلح الاحباطات السياسية تعنى هذا التحول الذي طرا على وظيفة الدولة التي لم تعد تعرف نفسها فحسب بوضوحا على القانون، ولم تعد تتحصر وظيفتها في الدفاع عن المجال الترابي كدولة لها سيادة إدارية، بل امتدت إلى تنظيم حياة سكانها وتدريب شؤونهم الثقافية والتجارية والاقتصادية والاجتماعية، مثلها مثل الراعي الذي يحمي الغنم بتنظيم مواعيد نومهم واكلهم و... وفي هذا المعنى لا بد للفضاء الصناعي، بل الجزرة أيضا، لأن الشرطي تفحص تقريبا في صورة المهيبه صورة دور رجل الدين في مراقبة أجداد هذه الكائنات الحية، إذ إنه يداخل هذا الشرطي توجد فلسفة رجل دين أخذت زيا رسميا جديدا.

ويمكن القول أن فوكو أعاد قراءة دور هذه البنائية في كتابه «المراقبة والمعاقبة»، حيث أصبحت هذه المراقبة التي كانت غاية البناء الحلزوني، حاضرة في كل الأوقات وفي كل الجهات، فإين وليت الوجه في المجتمع الحديث تجسد عين الرقيب لا بنام، ما

البناء الحلزوني أو الدائري

وبالكشف عن مكونات هذا الفضاء، يصبح الحارس الجالس في البرج الموضوع في وسط البنائة رمزاً لعين الرقيب الدائمة الخضور التي ترى كل شيء وقت ما تريد، بينما لا يراها أحد. إذ إن مبداء البناء الحلزوني أو الدائري كما يوظفه فوكو ميذا عام نجده في مؤسسات عديدة، تتسرك كلها في المجتمع من العديد من الأفراد

السفير الجميل

تعب زوياد/ طرقاته الضيقة/ فقره لا يحريه / ونحن لا نحب الدائن ناقصة / كما لا نحب أن تأتي فلسطين تاركة / حيفا ويافا وعكا، وعالنا كه خلفها / إننا لا نحب فلسطين ناقصة درهما واحدا / قل لهم يا دم بدم العمود / كيف إذا غاب كل نصف فلسطين / كيف إذا كان كل فلسطين في يدهم / ونزع من اقتراضا ... قبلوا التجاور معنا مستجدين / من رأى منكم وطنا يمنع نفسه / لثوار متسولين... / نحن لم نر / ولا نعلم إن كان قصر نظر لدينا / إننا لا نرى إعد من دما / لكنهم لا يرون إعد من مناصبهم / إن فلسطين ليست لهم حلم النهار / ولا كابوسه في المنام / فلسطين ليست سوى منصب مترف عندهم / غير قابل للزوال / وهذا الشمال القديم القديم.. مرتين / بالوصول إلى مفعد لا يميل / من رأى في عمره ثائرا يستحيل إلى رماذ الحوار...؟ / من رأى في عمره ثائرا... / يسلم رصاص نائته لصحراء باردة / وحارس غادر... ها .. / إننا نعتشق هذا الخيم

سكانها يخرجون مع الفجر / يمشون عن عمل / عن كلا / فهم عاملون وهم سينون / وأعصابهم نارها حامية...! / يستيقظون مع الشسر / يقتشرون عن فرانسهم بين لحم الجنود / تقول الأشاعات / هي ليست سوى طبقة معدمة / ولئن وسعوا سفراء متخزين / في صفوف البرزخ / فقد جازز الفقر عندهم كل الحدود...! / بعد هرب ربيعيا عن رزقهم / وفرت الأسماك من طعمهم / وظل الرصاص السفير الفريد / إنهم يخرجون مع الفجر / يصفون بين الشوارع أجمل متروسهم / تائل الخلاطات أصابعها بدهم / والقوائل ملوثة بالدماء / وغزة لا تحب الدما كثيرا / ولكننا لن يتخل في مواكبها بالكبا / من يقول لهم ياغزة: إننا لا نريد سفيرا أنيقا / فقد كان لقرن مديد دما سفيرا / من يقول لهم إننا لا نبدل أشياءنا هكذا / إننا لا نحب التخلي عن هذا السفير الجميل / من يقول لهم يا بلاطة / إننا نعتشق هذا الخيم

أحلى بكاء

لقد مشيت يا حبيبيتي / بعد أن أغويت / وغتوا لي: / دودش حب الرمان.. دودش خبزة ودهان / ومنذ تلك المشية ما رجعت

ذائع

دميت بقطعة فحم وحفنة ملح في الخلال الكهربائي... / قبل أن أضغفر زر الخلط. / روويتها من دوة بارقة... / بعد الإمتزاج غمست قلبي... / أنزف كدمائي عبر المداد الجديد... / المعجون بالألم المحرق... / الواشم الراسم جرحه على كل فؤاد... / النغم من أحراش درية... / * * * / الملح من سباح بنغازي... / والمداد مستنقظ من فجاج العمق...

وردة الخلود

أنتزها على جبات الرمل / أنسجها عن قطرات الندى / أنسجها على شعاع الشمس / أنتجها في ظلي لللمات / * * * / منك دقت حلالة الحب / منك عرفت معنى الحياة / معنى العطاء... / معنى الوفاء... / يحك طاب لي السهر... / غنى معي القمر... / أحبك... / وردة الخلود / وردة في الصباح إبستمت / لحننا بين الأوتار رخصت / «بيروز» الربيع انتقلت / مقعدة على كرسي جلست / لا تقوى على الوقوف أصبحت / نظرة الشفقة اكتسبت / راضية بقضاء الرحمان / مقتنعة بالإيمان / * * * / أنت من أنت؟ / ما جرحك؟! / أنت موجة فرح على الحزن تظلو / تتحدى بضحكها كل الجروح / نيروز أنت الجمال / أنت الليل بلون شعرك / الغروب بلون وجنتك / الصبح بصفاء عينيك / حالة واقفة / تجتاز بألمها الحدود / ضحكها تحيا بها القلوب / غروبها الحب والوجود / الربيع ينمض في قلبها / تكسر كل القيود / أنت وردة الخلود

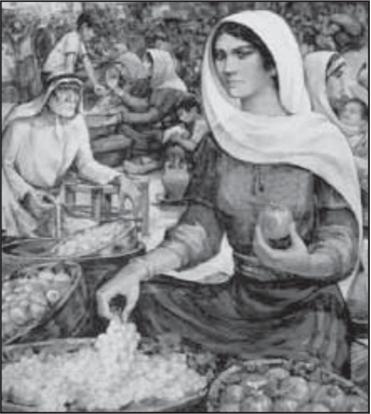
من لم ير غدوه لنا أمة في البحر / والبر والانس واليوم قليل...! / * * * / إن فلسطين جسد من دماء ونار / جسد من رمال ويحز وغابات حلم / عالم من المجد والحرب والشهداء / وفلسطين لم تسلم أبدا لهذا الخلال / لم تقدم يدا للتنازل / لذا قد رائتها الشهداء... / تفتلق إنن يا دمهم / ...توقف... كئي...! / يا أبطال الحجارة أوقفوه / كيلا يعبروا فوقه ثانية / يا أجمل الأنهار اللواتي يهينن / أحلامين الجيلة / للتضحيات الجسام / أوقفوا دم إبتانكم/ أوقفوه / إنهم يعيدون به طرقات سفاراتهم / أوقفوه... / إنهم يعبرون به جدهم / وإنن في أجمل الأنهار تنظرن / إلى رصيف طويل عبته الجثث / أيها الأوفياء... أوقفوا دمكم / أوقفوه... إننا دنا / أيها المقدسون... فقط...!

وتر الزمن

جلعت لحياتي نغمة... / تعرف على وتر الزمن... / لصوتك صدى يرفض / على إيقاع إحساسي... / لتلقي بسمه... / فتحمو عنه كل العناء... / أنى الحب فيك / وأنت طائر في السماء... / تمنيتم وما يجدي التمني... / أن أكون طائرا في الأفق يغني...

فرح لعيون

أبخذك إلى هناك... / ما أروعي في لانتاهي الدالات... / بين الشفاه أنا التريخ... / ياكعد بين الخطوط / أو قارب بيننا / إن الجمال شيد نارا / في أرخيل الأوان / وفي ذرات الروح كانت القيامة / * * * / سترسمها جداريات لفرح لعين... / هي الأجداد أرواح / بين الشفرتين والعين / ياكعد بين الخطوط / أو قارب بيننا / إن الجمال شيد نارا / في أرخيل الأوان / وفي ذرات الروح كانت القيامة / * * * / عندما دخلتنا... / صدمك علو العتبات / من الغاس الضبابيا / وعسل نقاح الصدور / من غظة دهشتك الأولى / تسوي محركا



لوحة للرسم الفلسطيني اسماعيل شميد

محمد الأصفر

العنوان الإلكتروني للقسم الثقافي في «العرب»

يرجى من الراغبين في مراسلة القسم الثقافي في صحيفة «العرب» إلكترونيا توجيه مراسلاتهم إلى العنوان الإلكتروني التالي:

thaqafa@alarab.org.uk

حاتم النقايط

فلسفة

« حسن الصدق»

انتهى الباحث في الحلقة السابقة من دراسته تقنيات السيطرة على الجسد في أعمال ميشيل فوكو الفلسفية إلى أنه من الصعب جدا حصر مفهوم 'المراقبة' في أعمال فوكو (1926 – 1984)، حيث لا نجد استعمالا احاديا أو تطبيقا وحيدا له في بارما، ويذهب به القول إلى أن 'المصطلح غني بتعدد استعمالاته وتاويلاته الممكنة'. ويمكن القول إنه متعدد الدلالات بتعدد الاستعمالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغير مستقر على دالة بعينها، مما يجعل منه جنسا قائما بذاته يسوق قوالب شتى- وتصبح المراقبة عندئذ كيانا شريدا' ليس له حمولة واحدة ويعينها في التاريخ.

وترسخ نظام مجتمعات الرقابة' في الحقبة المعاصرة عبر مراحل عدة بينها الدارس من خلال ما ذهب اليه فوكو، بداية من

المجتمعات السبائية في العهد الإقطاعي ووصولاً إلى 'مجتمعات الضبط في العهد الصناعي ويداية الرأسمالية..

مؤسسات الضبط في الحقبة المعاصرة ومختلف أشكال معاينة الأجساد المتحركة وكسر شوكتها وعتقها إلى حد التفتش التام عبر تقنيات إعادة إنتاج الذات الإنسانية...»

حملات التهويل وهوس التخويف

اهم ما نستدل به في واقع مجتمعاتنا المعاصرة تحولها بالتدريج إلى أشكال عديدة معقدة ومتطورة من البيات المراقبة وتقنياتها المختلفة، سيما أن أحد سماتها اليوم الانتقال من طور تجسيدا البيات سلطة الضبط عبر مؤسسات (السجن، المدرسة، المستشفى، المعمل، الجيش، والملاجئ أو إصلاحيات أحداث السن، والمستشفيات العقلية) إلى طور جديد لا تمارس فيه المراقبة السلطة بطريقة هرمية من أعلى إلى تحت فحسب، بل بطريقة غير هرمية ولا مركزية وبطريقة غير مباشرة.

وتكفي الإشارة إلى حملات التهويل المبالغ فيها من الإرهاب وبالتالي هوس التخويف من الأجنبي والأخر في المجتمعات الغربية... تروم تعزيز البيات المراقبة في المجتمع عبر وضعها في إطار من الحاجة الضرورية للمجتمع كياتي حاجته الضرورية الأخرى. وهذه المراقبة ترويض للأجساد، كما يشير إلى ذلك الهوس الأمني الذي استبدت بالمجتمعات المعاصرة أققا وعموديا إلخ.

ومن نداعةته فاطهرة الضريبة الامن في الاسواق والحلات والشركات الكبرى والبنوك، بعدما كان الامن حكرا على القطاع العام ومن اختصاص الدولة لوحدھا.

كما ان المفارقة التي نتجت عن الليبرالية الجديدة رفع الدولة يدھا عن الميدان الاقتصادي، مما أسفط هذا المجال في يد مراقبة من نوع آخر وجعله تحت قبضة الانساق والشبكات الحرة (المصرفية المتخفية) والادارية والتجارية التي حلت محل السلطة السياسية المتخفية.

إذ لم تعد هذه الليبرالية تستجيب لحاجيات المجتمع ككل، بل هي موضوعة لتلبية حاجيات الانساق ذاتها، حيث لم يعد السياسي يتحكم في الاقتصادي، بل اصبح هذا الأخير سيد نفسه، وهو ما يعد بتسلس سلطة الانساق إلى الحياة اليومية في جميع مجالاتها، حيث تصبح مبنوثة فيها من قمة الرأس إلى أخمص اللوحة (المصرفية المعمران والتقلل وقوانين العمل والهدام ونوع الرغبات الساموخ بها وتعميم المحافظ من خلال برامج الفرجة والتسليّة...إلخ).

وهو ما يعني ان المجتمع المعاصر يولد من أحسناته ومن صلبه هذه المراقبة ويعمها إلى ابدع حد، إذ يكفي القول ان هذه الاتباع تعزز بشكل كبير مع الهندسة المعلوماتية، بل إن الوجود المتعددة لهذه المراقبة غير المركزية والمتناثرة وغير المرئية أحيانا، مستحقة المعمران مراقبة قوائم الكورباء والماء واستعمال المناطق السكنية المغنطلة والبيطاق الصحية، وجدّادات وكالة الاسفران التي تحوي بيانات ومعلومات عن المسافرين.

يما فتح المجال من جديد لاستراتيجيات جديدة للمراقبة وظهور تقنيات جديدة متخصصة في كل ضروب المراقبة الاجتماعية. وبذلك ليس للمراقبة (تشكّل من أشكال الهيمنة) في نظر فوكو وجه واحد عسر العصور، فهي متواجدة عبرها جميعا، والمهم هو الكشف عن تآويلها وأشكالها وخصوصيتها في أية مرحلة وطرق تجسيدها المختلفة.

سلطة مندسدة

مرد هذا الدفع عدم ثقة فوكو في المؤسسات وفي سلطتها المندسة، بل إنه يعارض الفيلسوف هيجل فيما ذهب إليه في كتابه 'مبادئ فلسفة القانون'، حين اعتبر المؤسسات تسهل اندماج أعضاء

المجتمع وتعمل على انصهارهم بترقيتهم على محبة الصالح العام والتجرد من انانيتهم. بل يقف في اتجاه نقض من ذلك، في يحذر أعضاء المجتمع منها ومن خطاياها وممارستها، بحيث لا ينبغي مطلقا الوثوق في نظره بها وبإجراءاتها أو بوعدھا.

فانظمة المجتمع الحديث أصبحت عبارة عن طاحونة مؤسسات ومضبطين تسمم الانضباط عبر 'تشكئة مؤسساتية للحجز'. والمؤسسة بهذا الفهم معيارية بالدرجة الأولى وليس لها من أفق آخر تتحرك فيه غير الضبط والتفتن والتحكم كما أنها في مجملها تكبل الحرية الإنسانية بالمراقبة والرقابة الذاتية على نحو يعمد فيه الأفراد تلقائيا لتصبح سلوكهم فورا إذا بدر منها امتعاض أو اعتراض على ذلك، بحيث لم تعد المؤسسة في خدمة الفرد، بل وضعت الفرد في خدمتها وفي خدمة انها البيروقراطية الجهنمية. كما إن الصيغة الحديثة للمراقبة الاجتماعية تولدت من رحم مؤسسات كانت في البداية بغية خدمة المواطنين، بيد ان المهم في هذا الباب تفسير الطريقة التي تمارس بها هاته المراقبة، وكيف تخرج من جلد وأسوار المؤسسة ذاتها. وقبل ذلك، لا بد من استعراض جملة من الآليات التي اخلت ولاه مؤسسات الضبط والمراقبة. خلاصة الأمر يرجع فوكو أصل مؤسسات الضبط إلى عنصرين اثنين:

- يتعلق العنصر الأول بتبدل وطفئة رسائل الاتخام للملكية بداية القرن السابع عشر، حيث بلاخط وجود تحول وقع في وظيفة الرسائل المختومة، بحيث كانت قبل ذلك تحمل امرا ملكيا بالجنس والنفي أو الإعدام.

وبعد سقوط سلطة الإقطاع والتحول الذي طرا على المجتمع في بداية العصر الصناعي، لم تعد لها نفس الوظيفة التقليدية، إذ أصبحت هذه الأوامر تتبع طريقا مغايرا، من أسفل إلى أعلى وليس كمن ذي قبل: من أعلى إلى أسفل.

أصبحت هذه الرسائل توجه من تحت إلى أعلى (على شكل ملتصق) للاحتكام إلى الملك، قبل ان تعود ثانية عبر السلم الإداري حاملة امرة النهائي وموقفة بخاتمه، ما جعل منها أداة مراقبة محلية وبالتالي مراقبة شرسية (Capitaire)، أي تمس المجتمع أققيا وعموديا كعملية مسح رأسية شاملة.

ومن ن بلاخط فوكو تعميمها بالتدريج من قبل هيثمات وأفراد استودوا على جزء من السلطة الملكية، أو بتقاومها معه . لكي يزاولوا مهام مراقبة المجتمع برضاها وتواطؤها معها.

آليات مراقبة شعبية

الأمر الذي أدى بالتدريج إلى ظهور 'البيات مراقبة شعبية ميزت التطور الذي عرفه القرن السابع عشر والذي يفسر كيف بدأ عصر المراقبة بل (تعميم نموذج) الهندسة الدائرية مع بداية القرن التاسع عشر الذي سيُشمل جميع الممارسات والقانون الجنائي الأمنية تقريبا.

وبالتالي لم تعد رسائل الاتخام الإدارية مجرد رمز لاعتمادية الأوامر الملكية أو تعبيرا عن مزاج الوافق على هرم السلطة، بل أصبحت: (...) أدوات مراقبة تلقائية يمارسها المجتمع من تحت على نفسه، بحيث يمكن اعتبارهاها طريقة لتقعيد أخلاق الحياة الاجتماعية اليومية وطريقة الجماعة (بما فيها من جماعات - أسرية، دينية، كنسية، جنوية، محلية... لتأمّن مراقبتهم الأمنية ونظامهم بأنفسهم.

في المقابل يتعلّق العنصر الثاني بحلول الليبرالية الاقتصادية مع بداية القرن الثامن عشر التي يمكن اعتبارها إشارة أخرى هيأت تطوّر المجتمع الصناعي الوليد من خلال وضع هندسة أثرية لمؤسساته، وتبني نظام سياسي جديد يقوم على منح الناس حق التدبير الذاتي لحياتهم، وكذلك تحكم الدولة في أسسها لإعلاء الحفاظ على النسل وتثقيفه.

ذلك أن هذه السياسة الإيجابية (Biopolitique) من دون شك -عنصر ضروري في تطور الرأسمالية، وهو ما لا يتفصل بتاتا عن الفكرة التي بموجبها' تأخذ إجراءات السلطة والعرفة في حسابها بصيرورات الحياة والعلع على مراقبتها وتغييرها وتطويرها. إذ بدأ الإنسان الغربي يعي بالتدريج ماذا يعني أن يكون جنسا حيا في عالم حي، وأن يكون له جسد يفرض الإفاء بمطالباته وضروراته. ومن ثم ضرورة توفير إمكانيات حياة وصحة فردية وجماعية. وهي (جملة) قوى يمكن تغييرها وتويعها في الفضاء بوجه أفضل. إذ أول مرة في التاريخ ومن دون شك، يتم الأخذ بالتفكير الإحائي - البيولوجي - داخل المجال السياسي، بحيث لم تعد الحياة خاضعة لعوارض الصدق وقدريته، بل تحولت إلى مجال مراقبة العرفة وتدخل السلطة.

ولذلك فالتحولات التي تمت عبر تحول وطفئة رسائل الاتخام وما صاحبها من ظهور نظم الليبرالية الاقتصادية، عوامل استبقت

في غابة من الفراشات

السبب هو الضوء،
السبب هو اوقات اليوم
هل كانت المرة معدة للسعيد
هل كانت المرة غير طيبة
الا تريد المرة الا تريد أي صدى
هل المرة ضعيفة غضة،
استلمت

هجرة

يسير والركبة في السروال الرمادي
يرفض عند الحقيبة
لديه عمالات كم هو جيد
توم الكعاب
في الأخاديد سخونة بين اصابع القدم
ضو، يعبر الأفتنية يسير
أحدهم لا ينتهي إلى هنا،
اهو سعيد لذلك يقول،
هو سعيد كما يقول،
سعيد جدا يقول
هل هذه سفن الشنن؟
عند طرف الأضواء
في المحيط:
الأضواء الأولى تسخر من الصحف القديمة
صحافة منقوشة بالأحمر
في الصباح تشرب القطرات الأولى من صحنون بيضاء،
من إبريق الشاي الجاف أنت
تتشرب أضواء زرقاء تشرب بحميمة،
وتفتقت إلى نجوم جلودية
تبتخر وتنصرف حلسمة، الأضواء
في الخارج صيف يلعب، إعصاب جافة
حرارة مضينة تحفر تقيا مليئا بالغضب الأسود

في الليل

أنت هو 'يهسون' هو أنت،
تهمس المياه في الليل
الطيور - عصاة قطعان سرب من آلاف آلاف الطيور
أسماك تفتنساها وأرانب
اسم الجزيرة شي - ما
وتقع في مكان ما للطيور
في الريح في البحر في الجزيرة

العنوان الإلكتروني للقسم الثقافي في «العرب»

يرجى من الراغبين في مراسلة القسم الثقافي في صحيفة 'العرب' إلكترونيا توجيه مراسلاتهم إلى العنوان الإلكتروني التالي:

thaqafa@alarab.co.uk

العرب الثقافي

البيولوجيا السياسية بين سلطة العرفة ومعرفة السلطة / 5

أنظمة الضبط أو «المراقبة اللينة» على الجسد في فكر ميشيل فوكو

- مراقبة جنائية وقضائية
- مراقبة أمنية
- مراقبة الخروج عن الآداب العامة
- مراقبة طبية
- مراقبة الممارسة الجنسية
- مراقبة الممارسة العلمية والمراقبة الصناعية
- مراقبة العمل والمراقبة الاقتصادية
- مراقبة الصحة والنظافة
- مراقبة آرباب العمل
- مراقبة الاستهلاك والأخبار

ومع ذلك يقر فوكو بتواضع شديد إن اللائحة ما زالت طويلة لأن تحليل جميع البيات المراقبة التي تمارس على الأفراد، ما زالت تتطلب الإنجاز' الموسع، بحيث إذا كانت العديد من أشكال المراقبة الحديثة هي من صميم مؤسسات الضبط (السجن، المدرسة، المستشفيات، الآرة، العمل...)، فإن بعضها غريب عنها. وهو ما يوضع الطبيعة المزدوجة لتقنيات المراقبة الحديثة.

إن أنه غالبا ما يمكن التعرف عليها من خلال امائن وفصاءات محددة تنظم إعادة إنتاجها، غير إن الحدائة غالبا ما تجعل المراقبة الاجتماعية خفية وغير مرئية مكلفة بحضور دائم بحيث يسهل نقلها من مكان إلى مكان والتنقل خفية بكل حرية... والمراهين من ذلك إن غايات المراقبة الاجتماعية الحديثة تهدف إلى الأقلال حسيمة المؤسسة وأسوارها، ما تعدد إلى الخروج منها لكي تتعمم وتظل المجتمع برمته، بحيث لا يعود الضبط من مهام المؤسسات الحديثة فحسب، بل يصبح من مهام المجتمع ذاته. إن تكون المراقبة حلزونية ودائرية وسقلية يمارسها المجتمع على ذاته ومن ثم تقلب مؤسسات الضبط إلى استراتيجيات عديدة مستقلة ومتفرقة ومبدعة في عموم المجتمع لتجتاور أسوارها ومجالها المحدد بكثير.

المراقبة الاجتماعية المعمة

لذلك نرجح وجود بنية مزدوجة للمراقبة في كتابه 'المراقبة والمعاقبة'، من خلال حركة تدب المراقبة المؤسساتية خارج أسوار المؤسسات، وهو ما يمكن أن نطلق عليه بالمراقبة الاجتماعية المعمة، بحيث يشارك الجمع في المراقبة بوعي أو بغير وعي، كي تتسلل وعموم المجتمع، وبالتالي تتخفي عنها صيغة المؤسساتية لتعود دون وعي محدد لها ودون مركزية، مما يصعب التعرف عليها. وهو ما يعنيه فوكو نحن بقول: في الوقت الذي تتزايد فيه مؤسسات الضبط من ناحية، تتجسد البائتها نحو عدم الماسسة' والخروج من الحصون المغلفة التي كانت موظفة فيها إلى التنقل الحرة، بحيث تتحلل أنظمة الضبط (disciplines) الكثيفة والمتراصة إلى إجراءات لينة من المراقبة. ومن ثم فإن أي كلام عن تكون الذات يمر لزاما عبر الإحراج والغرض في تاريخ تكوين مفرداتها وسلوكها وممارستها وخطاياها بوصفها البئتان الذي تقوم عمله، أي إن تكون الذات وتشكلا لا يبنيني ولا يقوم على أساس هوية نفسية، لكن يتم عبر الممارسات التي تخفي مستويين أساسيين: المعرفة والسلطة - من جهة المعرفة مسجدا أنها تعيد إنتاج الذات بتقنيات إحياء سياسية (Biopolitique) لها وطفئة السيطرة على الأجزاء، أما من ناحية السلطة من حيث هي قوة - تجازي وتعاقب - فهي تخضع الأفراد وتنظم حياتهم وتقتن سلوكهم.. كما يمكن النظر إلى هذه السياسة الإيجابية من خلال ما جرى مع نهاية القرن الثامن عشر

وبداية القرن التاسع عشر، من حيث تاريخها لسياسة تنظيم حياة الأفراد بواسطة قوانين تعتمد قوالب معرفية وعلمية من خلال ضبط النظام الاجتماعي بالزيادة في صلاحيات الدولة كما يتبادر في المصطلح الألماني المقابل (Polizeiwissenschaft). إذ شملت البيولوجيا السياسية تدبير مجال الكائن الحي برمته: العمران، الصحة، النظافة، المواد الغذائية، ممارسة الجنس، الولادة، تحديد النسل، الكوارث الطبيعية والأوبئة... وذلك منذ أصبحت هذه المجالات محط زهانات سياسية واجتماعية. بيد إن مفهوم البيولوجيا السياسية أو السياسة الإيجابية إذا شتقا تعبيرا عربيا مقبولا، يعني عنة فوكو تجاورا' للثنائية التقليدية (الوقلة/الجمع ليقوم مقامه تدبير جديد يزاوج بين اقتصاد سياسي واقتصاد إحيائي - بيولوجي - يشمل جميع مناحي الكائن الحي، أي ان الامر لا يتعلق بممارسة حكم على الأفراد فحسب، بل بتعاوه لتيسل مجموع مجالات الأحياء وفضاء الكائنات الحية برمتها.

إعادة إنتاج الذات الإنسانية!

ولمعرفة كيف تعصد المعرفة والسلطة إنتاج الذات الإنسانية تاريخيا، يجب لزاما أن نعتدنا اختصاصا مزدوجا في نظر فوكو:

أولا عبر ممارسة الوصف الحفري في تشكّل جل المعارف حول الذات، والكشف عنها لينة لينة بنفس الشكل الذي يمارس به عالم الحفريات الحفر عندما يُعَد إلى الكشف عن معالم وأثار إنسانية.

ثانيا، أن يعمد إلى البحث في ممارسات الهيمنة عبر الكشف عن تقنيات السلطة وفي استراتيجيات الحكم التي تم بها إخضاع الأفراد عن طريق السياسة الإحيائية.

مغزى هذه المراقبة إن نطق بتلاسم الممارسة السلطوية، سواء منها القديمة التي كانت عنفة وقطع الإوصال وتدق العظام أو الجديدة منها تلك التي تسعى إلى ترويض الإنسان وإنسنة المتدربين ونتجه نحو عقاب مؤسّسن عبر المصحات العقلية والمستشفيات وفوراته الغض...»

فمجتمعاتنا الحالية ليست ضد العقاب، بل هي ما زالت تنادي بعقاب مؤنسن، إذ تورات المصطلة والجلاد والإعدام في الساحات العمومية لتحلل محلها مصحات وعبادات نفسية وإصلاحيات خيرية تهتم بالأحداث ومدارس تربوية مسجحة بأسوار عالية، حيث يمارس الترويض والتطويق والتجسس صباح مساء.

بذلك يشير ميشيل فوكو إلى تآشير مرحلة جديدة من تاريخ حضور ونفي الجسد عبر التاريخ، فطائرة المنومين والمهجنين والمعوقين والمحقق في الطرقات العامة، كما محاولة إعادة المتدربين والمحررفين والثوار في العصور الوسطى، تحولت إلى حجز وعزل في المصحات، بل تطور إلى حبس في السجون والشككات لترويض العقول والأجساد.

تاريخيا، يعود ظهور مؤسسة الصحة الحديثة سنة 1657، التي نشئت عهد الحجز والعزل في مسالها الطويل من تعقيب الأجساد ونفيها وتوقيوم ما بها من اعوجاج بيولوجي واجتماعي. فالعبادة العامة بهذا المعنى لم تعد مجرد مستشفى عام، بل هي إدارة حكومية منمنطة تحت إشراف الدولة منذ أن تم تعميمها بموجب مرسوم ملكي في 16 حزيران 1676.

الجسد المتبؤد

انطلاقا من ذلك، لم يعد وضع الأجساد في مستشفى امرا مستساغا ومقبولا في عصر الحدائة، لأن ذلك يعس كرامة المجتمع البيورجوازي وما وضت عليه مبادئ عصر التنوير من حقوق الفرد التي لا تقبل المصادرة، لذا وجب إطلاق سراح هذه الأجساد من السجون نامات برية.

ولكي غالب الأحيان تم حجز وعزل من يشكلون خطرا منهم في مصحات وعبادات وخيرات لتطهيرهم من الحقم والتسدؤد والجنون والشترد والتعرد... كما إن تدخل الطبيب في هذه المصحات والخريات والملاجئ كناية عن تدخل للمعرفة في جسد السلطة، أي بما هي معرفة لها تقنياتها الخاصة في تقيوم الجسد وتطويعه وترويضه وإصلاح ما به من اعوجاج حتى يستقيم ويندجح في الحياة الاجتماعية من تلقاء نفسه.

ومن الأهمية بمكان الإشارة في هذا الباب إلى أن مهنة تعليم الطب كانت تدب إلى وقت قريب في المستشفيات العسكرية، غير أن انتقال المجتمعات من العصور الإقطاعية إلى عصر الجمهوريات البيورجوازية الحديثة صاحبه تطور في تقنيات الضبط لمراقبة ومعاقبة الأجساد المتردة وكسر شوكتها وعتقها، بحيث يؤكد ميشيل فوكو إنه إذا كانت المصحات الإطاعية تملك الأجساد طوعا وقهرا، فإن جميع المؤسسات بمرحلة عصر العصور البيورجوازية أصبحت مجرد اصطلاحات بشرية للترويض.

وإذا كانت الدولة منذ أن اتفقت الإمبراطور كوستانن المسجحة في سنة 323، تهتم بخصاص الروح من خلال مؤسسة الكنسية، فإنها مع المرسوم الملكي السابق، سيصبح من اختصاصها أيضا الاعتناء بالأجساد من خلال مؤسسة المستشفى والمصحات.

إن نشأة العبادة بهذا المعنى تعني حلول تجربة جديدة في التاريخ تقوم على الفصل بين الشؤر والمرضى في العصر الكلاسيكي، كان المرضى والمجرمون لا فرق، يقيدون بالسلاسل ويمارس عليهم التعذيب بدعوى تطهيرهم من السس والأرواح الشريرة.

وتعني عن التعرف أن بنية هذه المؤسسات بدأ اعتمادها تقنيات سياسية، إحيائية تحمل معاة إعادة نظر في علاقتها بالجسد بصفة عامة والكائن الحي بصفة خاصة، بحيث لم يعد بوضع المجرمون مع المحقق والمعوقين والمشتربين والجناسين، كما لم يعد بوضع المتشردون مع المعوقين والمرضى.

بمعنى إن هذا الفصل وقع بناء على معرفة تمازت بموجبها السلطة والمعرفة في تفسر نطقا وضبطا ومعايير، وتقسيميا في العمل.

« باحث جامعي، ماركيز تاريخ أنظمة الفكر المعاصر جامعة السوربون

لاستعربن من الدهر،
إن جاد وأقنن العظام!
واحفظ أديم وجهك،
والنشر على نخب الجلا.
تموت الحرة، ولا تشتملم،
وتؤمن نفس الشهيد فدا.
ومن رضى بالاعر،
وصرف الدهر صفقوا وكبر،
ومن بعد قرظبة، شخ الرخاء.
لبغي على نفسي،
ولعقم أممتا،
شمانة الأعداء.
وجوز الأشفاء،
وبما يأنفسنا أشد بلاؤا.
لكل شؤر أمؤاحة،
وبما فيه يرتشخ كل أناة.
قد قبلنا جميع صرفوف الدهر،
إلا الولاء للأعداء.
طاعة أولى الأمر من مقدسة،
وطاعة الأعداء نكر وعياء.
فلا يقل قربانا، غير الفتنا.
فلا خير فينا ولا في الأخير،
سجدتنا جميعا لقاتلنا ولا.
ولا نفع اليوم البكاء،
ولا يستجاب الدعاء.
عظمة الأعداء،
وإن وعد المقامة مائة،
لنخط الأعداء، والمعلاء.
وتعني الحدائق،
وتبتسم السماء.
فالمقاومة تكسب، الجسد مناعة.
وإن نبعث،
لا يقني عن الموت دواء،
ولو لا تبرؤ النجر،
على اللبل لحل الفتنا.
صدان الخنوع والتبرؤ،
إن الموتى مفتوقان.
وجمع القيقضين عنا،
ومن منح السلم طلالا، غياء.
ومن منح النصر شقيقا، بلا.
إذا رايت نمرا لللهال،
تفتن أن رؤية النصر، يظلفه الشيا.
وإذا رايت على العكاز جيشا،
تفتن أن مقاومة في الوراء.
عوفيت من كل شر وحسد،
وإذا أعداءك، الشتم والسوء،
فتسقم يا بوق المقاومة.
قد طلع الفجر،
وعم الضياء.
وقد ابتعد رؤوس،
المرتزقة ومن معهم،
وحل قتلتها،
على نخب الجلا.

محمد الطيب حمدوني



لوحة القنبيلة لبول غوغان

الحر يُؤيد المائدة..
الجسد، الشعر، العيون،
الماء في البحر..
الطيور
يسبب البيض
وكل الرغائب التي نادرا ما يتكرر بها
وما يشعُر بها وما تحب وتعلم
وما تقا وتقلد
الآف الطيور ترتعد
أيضا إذا الميت في الماء
الجسد المتراخج
البيت الثامن على الحجر أيضا
كلها كدر وحنتل
إذا كان الجسد طريا
يتحرك له شعر أسود وحجر أحمر
أحيانا يكشف أحدهم العطاء،
الآف الطيور طيور سوداء،
وفوقها آلاف الطيور
الآف الطيور آلاف نظير فوقها
تخلط وخرقة أمواج خضراء، الدرب الأحمر
تحت الحجارة نبات أشواك كل هذه الأشواك
لا تلمسني!

يوحنا لير

شاعرة سويسرية

فلسفة

أنظمة الحقيقة وبنيات المجتمعات الحديثة في فلسفة ميشيل فوكو

✽ حسن الصمق ✽

يحاول فوكو من خلال تحاليه الحفرية مراجعة مفهوميين اساسيين في حقل الفلسفة، يتعلق الأمر بمفهوم الحقيقة والتاريخ، بحيث ليس هناك من حقيقة دون تاريخ وليس هناك من إيلاطة صحيحة على التاريخ دون استعراض حقائقه كما هي، لا كما تستعرضها هذه السلطة أو تلك. ومن ثم وضع فوكو نصب عينيه التعرف على بنيات وأنظمة الحقيقة التي تشكلت بها المجتمعات الحديثة وتركن إليها. لكن هذا النظام يبقئ في نظره قبل كل شيء خطاب في أساسه، بوصفه معرفة للسلطة وسلطة للمعرفة، من حيث أنه يحلل ويحرم ويعيد إنتاج المعرفة التي تسهر على ديمومة السلطة ونفاذها في المجتمع.

لذلك أن ما يعرّفه فوكو على وجه التحديد يمكن في الكشف عن نماذج الخطاب الذي يوظف معارف ومواقف وقرارات وقيم ومبادئ كتحليل صحيح، فيواسطة هذا الخطاب تميز المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية -كبيرة كانت أو صغيرة- بين ما هو خاطئ وما هو صحيح، بين من هو صالح أو طالح، كم ما هو محتل وما هو محرم، بل ما هو مسموح به وما هو ممنوع، وبالتالي تعاقب أو تجازي بموجب ذلك... على غرار ذلك يتغير مفهوم الحقيقة مع ميشيل فوكو كليا، إن لم تعد

ما هو الطريق الاضمن للحقيقة، بل يد بعد السؤال:

ولماذا هذا التعريف أو ذلك؟

بل كيف يستعرض أي خطاب حقائقه؟

إذ أن إعادة بناء الحقيقة تقني في نظر فوكو لها علاقة وعديدة مع مصفأة التاريخ، ما دام الهدف يتحلى في رغبته المعلنه عن تلك الحقيقة الغائبة والنسبة في سراديب واقبية التاريخ السريية، تحقيق علاقات خالية من السلطة والهيمنة التي ارتبطت وعلفت بها، كما الكشف عن الأليات والمعيقات التي دعت في اتجاه دون آخر، ما يلبث في نظره أن التاريخ ليس خطا مستقيما يسير إلى الامام باطراد، بل إن الأهم من ذلك إمكانية تصحيح أعوجاج مساره بالفضال فيه وبالمقاومة.

وإجابا يمكن حصر عدة خصائص للحقيقة، أبرزها:

– عادة ما تتمركز الحقيقة حول خطاب علمي ومؤسساست سلطوية تعيد إنتاجها باستمرار في مجتمعات اجتماعية واقتصادية والسياسية، بحيث تعمل على ذيوعها وشيوعها على اوسع نطاق، سواء عبر المؤسسات التربوية والقيعية أو الإعلامية.
– ذلك أن الإنتاج والتوزيع في هذا الإطار يبقئ محط مراقبة بواسطة المؤسسات التالية (العائلة، المدرسة، الجامعة، الاستشفئ، السجن، الجيش، المحامات، الإحداثيات، المؤسسات الإعلامية...) التي تستطيع دائما رهان صراع اجتماعي ونقاش سياسي عنيف، بل باخذ في الخطاب طابع صراع «إيديولوجي» بين مكونات المجتمع جمعا.
–ولذلك يرى فوكو من السلام أن نفوض في رهانتها الحقيقة ولعب خطاباتها المتعددة، التي تعرّبه تلك العلاقات المتشابكة والزمنية التي يتكون الفرد من خلالها تاريخيا تجريبية إنسانية نتيج له أن يصف نفسه في خاتمة فرد عادي أو غير عادي، أحق أو مريض... وما إلى ذلك من التصنيفات الرسمية....

إحتمالاً، إن الحقيقة وفق هذا المنظور تتر عبر تحليل شروط تكون المعرفة ومختلف صيغ الإنتاج خارجها، لأن المعرفة والسلطة لينيان لا يفصلان، لا يمكن الفصل بينهما إلا على سبيل التسلف، فالمعرفة باندغامها في المؤسسات في من تشكل الذات وترسم لها فوائين ومعايير وضوابط وحدود، وبالتالي إن مختلف الصيغ والتلاوين التي تظهر بها الذات في المجتمع ما هي في حقيقة الأمر لا معرفة استوتت لكي تسير على أرجل. ومن خلال هذه العلاقة المتدعة بين الذاتي والموضوعي في علاقة السلطة بالمعرفة والعرف بالسلطة، يمكن الكشف عن الحقيقة كتعبئة هيمية في المجتمع. أي الأمر لا يتعلق بالكشف عن حقيقة صحيحة، بل فقط عن تلك القواعد والمعايير والتلاوات التي استطاعت أن يوسعها بين السلطة التي تبعد فرد ما بالسوي أو المخرف... والحقيقة هنا تختلف عما يجالول المراحل الرسمية تصويره كذلك، أي ذلك الذي اعداد ممارسته التحقيق والتقرير إلى أحداث التاريخية التي أبحاث تستحق العرض واخرى - لا بل على العكض من ذلك، إن الحقيقة بوصفها ممارسة خفية في أعماق التاريخ بحيث عن خصوصية الأحداث، خاصة منها الصغيرة والهامشية والتافهة والعرضية والمطرفة التي لا يلفت إليها احد.

ويمكن اعتبار كتابة التاريخ بمثابة أركيولوجيا (فحريات): «أركيولوجيا لا تبحث عن إيجاد نقل مستقر وعديم الإحساس يربط بين سائر الخطابات بما يسبقها أو ما يحيط بهما أو يتبعها في أتحاد هادئ، ولا تتلقق تلك اللحظة التي لم يكن لهدء

الخطابات حينها وجود، وأصبحت بعدها علمي ما هي عليه، ولا تلك اللحظة أيضا التي تفكك فيها ضلابة صورتها كي تقف بعدها شيئا فقيدا هويتها.

فشكلتها عكس ذلك تماما، لأنها تسمى لوضع تعريف الخطابات في خصوصيتها، وأن تبين ما تحزله لعب قواعدها لكل. ومن ثم تصاحبها على طول تقاطعاتها الخارجية لكي تتمكن أحسن من إيراها، فهي لا تتقدم مقابلة ولا تنطلق من مجال عمومي غامض لتبرز خصوصية الشئس أو ثبات العلم نهائيا، فهي ليست قانون الواقع (doxologie) السائد، لكن تحليلا مغايرا في صيغ الخطاب».

وبهذا نستنتج إن التاريخ عند فوكو هو تاريخ المسكوت عنه من اختلاف ومغايرة وسلبية ولاعقل والخراف وعوجاج وتشويه كما يتجلى في تاريخ المهشين والمخرفين المنبوذين والضغفاء. وهو بهذا المعنى غير تاريخ المؤسسات الرسمية والدينية والملوك والأشرء والحروب، فالخفريات بهذا المعنى تمارس نوعا من الحفر تحت أنقاض عقل -ولا عقل- مرحلة تاريخية ما، لتزغ الغبار والأوجال عما تم كتمته وإخفاؤه وبفسفاء السلطة وبريقها الوماج، بغاية أن تنفض عن أيجاد المهشين والمخرفين والمواطنين العادين برقان التكيب والنسيان الذي لحقهم في الكتابة التاريخية الرسمية التي جحيتها عنا، والسلطة بهذا المعنى تغدو عبارة عن «الر ضامت، يجب أن تنفض عنه ما علق به من غبار وأوجال، أو كومياء ينبغي فك أسرارها وتاريخها.
إذ لا مناص من ذلك بكف أسرار السلطة والياتها المختلفة، وكيف تمت ممارستها، بل يجب أيضا القيام باستقصاء طرق العف فيها والبحث عن وسائلها والأجهزة التي أنتجتها ومكتمتها من ممارستها على أشكال معينة من التعابير الإنسانية في تلك الحقبة.

استنطاق العالم الصامتة

يمكن إجمال تصور فوكو للتاريخ من ثلاث زوايا:

– الزاوية الأولى تنتقد بشدة النظرة الكلاسيكية للتاريخ كتحقيق وكخط مستقيم، له بداية ونهاية (وهو مفهوم نيتشوي (Nietzsche) بالأساس، إذ يرى فوكو على العكس من ذلك أن التاريخ شذرات وقاطعات وانعراجات وصدف وعوارض طارئة، ما يعني أن التاريخ بهذا المعنى ليس وحدة سريرية منسجمة غاية الانسجام لها بداية ونهاية، كما أنها ليست فقط ما يقع من تدوين لـ«أحداث كبيرة» في التاريخ الرسمي الذي يقوم بكتابته ملففو الأمير وفقهاء السلطان.

– الزاوية الثانية في فهم فوكو للتاريخ يقوم على «فلسفة للحدث»، من خلال الاهتمام بجمع الشذرات والجمعيات والأحداث البسيطة والخرني من الآثار المتخفية أو تلك التي توارت معالمها تحت الرمال، وخاصة تلك التي عاها غير النسيان والتعميم من خلال استنطاق المعالم الصامتة وبعثها من مرابما من جديد، فالحدث أريشف مفتوح، والأريشف بهذا المعنى كتابية عن شاهد شهد من أهلها، يطل علينا من أعماق التاريخ... والحال أن فوكو لا يهتم بالأحداث الهامة والعظمى أو كما تم تصويره كذلك، بل يبقئ الاهتمام على نحو أكثر بمجموع الأوجال والمعراسات والسلوكات اليومية في حياة الأفراد والشعوب، وبخاصة ما ظهر منها وما خفي... ذلك أن ممارسة الحفر هاته تمكننا من الكشف عن أثار ومعلم وإطال الوجود للثقافة أو المحلية، لتنفذ منها بعد ذلك لمعرفة زمن تشكلها، ويوصفها خطابا سائدا، تعكته الأسنس وقيما آمن بها الناس طوعا أو كراهية..

– أما الزاوية الأخيرة في هذا المعنى تحاول الربط بين الفلسفة والتاريخ، من خلال طرح الإشكالية العمراة الفلسفية والممارسة التاريخية، ذلك أن مغزى هذا التوجه يسيرره الخروج من النظرة التقليدية التي كتلت فهم الإنسان للتاريخ من خلال تاريخ الأفكار أو ما يصطلح عليه فلسفة التاريخ وتاريخ الفلسفة، فالحدث التاريخي بهذا المعنى لا يمكن حصره في ميلاذ نظرية ومدرسة فكرية، أو واقعة بعينها: قرآن، معاهدة، إعلان حرب، فتح محم أو تسليحة لوفائع معركة... والنتيجة بهذا المعنى ليس تحقيقا يشتغل وفق قواسم إنم فحسب، كما أنه ليس تاريخا تعاقبيا يحصي مراحل تتعاقب والتجوية إلى تقسيم بين قسما من الأوقات والوقائع والأساسيس والمشاعر والخطابات المهنسة على التحولات والأثرجات والوقائع والأساسيس والمشاعر والخطابات المهنسة لسلطة، لأن التاريخ تاريخ صراع، أو قل علاقة غالب مغلوب وسلطة تم السطو عليها، لكي يستلحق الأدرس الضغال إلى عمق خلاطة السلطة التي أصبحت معرفة بالأقوياء بوصفه صياغة معجم وسلوكات وكلمات ويتم وضعها في أفواه الناس بربودتها بالرغم منهم غالبا كالبغاء.

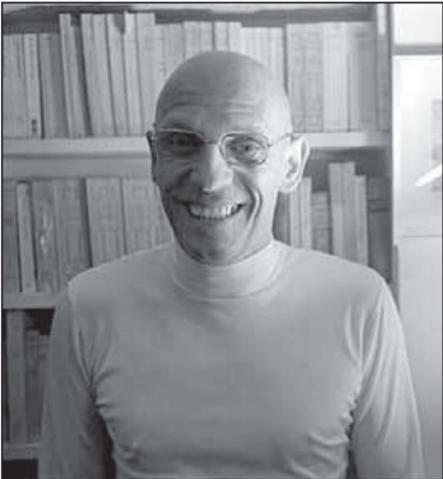
الخطابات المتنازعة

وفي نفس الوقت ثمة كشف عن اليات الصراع بين المصالح وخطاباتها المختلفة،

العرب الثقافي

البيولوجيا السياسية بين سلطة المعرفة ومعرفة السلطة/6

أنظمة الحقيقة وبنيات المجتمعات الحديثة في فلسفة ميشيل فوكو



ميشيل فوكو

بخاصة تلك التي ترهن أو تؤسس لسلطة ما، ثم ما يحيط بهذه الأخيرة من صراع معلن أو خفي. بل هي بهذا المعنى رصد في كيفية صعود سلطة ما إلى الواجهة وتحلل وسائل أو أقول نجم سلطة أخرى. وبذلك كله، يصبح التاريخ ليس تحليلا للماضي وتحقيقا له، لأن الحدث لا يمكن اختزاله في فترة من الزمن بل نقطة تقاطع بين العديد من الفترات تشكل الخطابات المتنازعة أبرز من يمثلها.

وبإيجاز شديد، يعود التاريخ بهذا المعنى تقصيات واستكشافات وجغريات في تحولات الوقائع، من حيث هي مرتبطة بالحدث وتقسيم الليل والنهار، التي تكلم عنها الراحل العزيز عبد الرحمن منيف، فالتاريخ ليس ذاكرة رسمية بل جينالوجيا (شف للمبادئ والمنطقات)، الشئر الوحيد لكي يحمينا التاريخ من منزلقات الحتمية التاريخية ومن استدعاء الماضي لحل مشاكل الحاضر. وبهذا وحده يصبح التحليل التاريخي شرطا لنقد انطولوجي للحاضر.

إذ يغدو التاريخ بهذا المعنى بحثا في خصوصية الأحداث خارجا عن أية غائبية أحادية ومنطق على للأشياء، فهو تاريخ نقدي يشتغل من المتعد والمبعر وصدف البدايات والتعرجات والاحتجابات. كما أن فوكو لا يدعي في هذا المقام بأنه يتوخى العودة بالأحداث والظواهر إلى صمرها الأصلي، فالمهم لديه ليس لماذا وقعت، بل كيف وقعت؛ ولا يريد فوكو من هذا المنطلق إعادة كتابة التاريخ من جديد، بل على العكس من ذلك تماما، يسعى جاهدا لإعادة خصوصية الأحداث بعد تطهيرها مما علق بها من أوجال وشدن السلطة وتطهيرها من القوة والعنف الذي كتبه به الصالحين التاريخ بدماء ضحاياهم، تعمل على ذكرنا بنااريخ من لا تاريخ لهم من الصالحين والمهشين والمخرفين والقراء والنور والمخمرين...

فحريات العلوم الإنسانية

فالمجناولوجيا (كشف المبادئ والمنطقات تقف على حد نقض مع النزعة الوضعية التي تعيد إنتاج المجتمع وفق أرقام وإحصاءات وبيانات وحسابات، وخاصة تقسيمها التاريخي إلى فئب ومراحل وعصور، بل يجب فهم الجينالوجيا كمشروع فحريات للعلوم الإنسانية، ما دامت مهمتها التقصي والنشس والتحقيق والحفر في «مزال» التاريخ الرسمية الذي تزكم راحتها الأنوف والتي لا يقربز منها أحد، نظرا للراحة

الهوى القتال



عبد الوهاب التنصوري

تعبّ يبتلّنا،
فأترأ على التواج والحشب القديم
فصعدني لم تلثني جوى
ودعولي
ويصعدني بي ويصعدني
ثم يعلو
ودعولي بي
اللى قتم تعالت
ويصعد فوق ما يدري عليم،
وعند التنتهي ادعو بساطي
فيايتني وافرشي
وياي! ناديت-بالخسر
القديم
ينارلني ويشرب من نخوسي،
قديم الحصر في جسدي
قديم الحصر في جسدي
قديم
ينارلني، فاشرب منه كاشا
بها جيب
به عين التعيم،
شديي عادة
فاضت جمالا،
واسكت.
لا تشبه، لا اتول
فكل القتل-إن وصفك-
نديم، وكل لمح لو شحنت لئيم،
ولكن هذه المرة لئيم،
كانت هي السراول قذرها الحكيم،
مفتحةً للسلطة عصي؛ تهجئها، معانيها سديم،
تحصن بها وتسعها ولكن
ترى كما كما من النسيم،
يحل بنا ربيع، وإن غامت
مجرنتا تقيم.
عطر الزهر والطيب العجيب=
السد وكل هذه الجبث التي قمت منذ
ليل وليل والى بعد قليل سوف تقضي
قسما بحجارة هذا الحميم وإسلا
تتاثر دمهيا على الجدران إن تروا
على جسدي مرة أخرى لمن تعورا

أيها العابرون لا ترحلوا .. نريدكم

والتشك في وجود الجن والانسان
سيقبلنا عيظا مرتين
فنحن لم نشف غيلنا من دمكم
لأننا سنزغ ساعاتكم بالوت والاكثان
أخرى وتعيدون ثلاثة رسالة اجدادكم
دايعين اذ روت ورك فقالتا ..
فإن يجب فوما جبارين
وحن هنا نلك قاعون
بالقون فوق صدوركم
كاشجار الجيمر والسويدان
بالقون نسدك كل لحظة خطوط احلامكم
ونشر الغراب في عيونكم
والربح في قلوبكم
تتاثر دمهيا على الجدران إن تروا
على جسدي مرة أخرى لمن تعورا

جميل حمادة

هذا أنا

الحياة وتضحي السنى ما تريد بهذا
الثبات ولا تتعثرز كيف لازلت تحيا
وانت تواجه هذه الخيرات رغم
تعاستها،ثم توفى اناك تلك مقدره
الاختيار ولست على الأمر مجبر
كيف لازلت تحيا وقد جف كل الذي
فيك صرت كذلك عود تيبس لكه ما
تضحك منها ولا تتأثر
إنما لي سؤال وأعرف أنك سوف
تجيب عليه
لأنك ما كنت يوماً مقصر
«الله اكبر!»

كيف لازلت تحيا وانت تواجه تراجيديا
عبدالمحيد بطاؤ

تضاريس

1 لماذا ؟
لا ياتي الصباح العادي
متأخرًا عن موعدة
مطبة
كما يفعل النساء عادة
جيمع
وتحسني بلا فئد واني
اعيم بها، اعيم بها اعيم
أغار على جدائها
فقطيقاروني
واكرهه،عصف، وخانتها اللذني لم غريم،
اذا رضيت أسئها ملاكي،
ويكفيني لى التمتع «ميم»،
وانظها واقلها كلامًا=
ك ف ك ثم لم ثم ميم...
1 لماذا ؟
لا ياتي الصباح العادي
متأخرًا عن موعدة
مطبة
كما يفعل النساء عادة
جيمع
وتحسني بلا فئد واني
اعيم بها، اعيم بها اعيم
أغار على جدائها
فقطيقاروني
واكرهه،عصف، وخانتها اللذني لم غريم،
اذا رضيت أسئها ملاكي،
ويكفيني لى التمتع «ميم»،
وانظها واقلها كلامًا=
ك ف ك ثم لم ثم ميم...
2 لعل
اليوم يختلف عن الأمس
وتعطرن
في حروف اسمه
فاعلم أن الرجال
قد عادوا من الحرب
يجزون الهزيمة
إلى الفراش
يلحفوا أشباههم
3 كيف ؟
ولا تملك خريطة مفصلة
على مقاس خطواتك
أو يوصله تحدد متاهاتك
كلما أغرقت في أعماق
البحر
8 ربما
هببت ريح صرصر
من الشرق
نابيا يحتاج الراعي
كي يطرب قلبك
للتلهم بنهم عشيقك
وكم كلما شرسا بلربيه
ليسرح في الظل ظلك
حتى يامن غردك
ويحسن سوقيتك
على إبي نهج
كاشتنيلك
ك
إذا

حسن بلغم

قال لي : حينما يستبد بك الهم

حين يحاصرك الحس بالغين كيف

ترُك تفكرك

حين تأتي الرياح بما ليس بتغي

نهر العواصف كل الذي في يديك

تنشد عليه فلا يتعثر

حين يبده هذا الزمان بصنع ماسيك

تضحك منها ولا تتأثر

إنما لي سؤال وأعرف أنك سوف

تجيب عليه

لأنك ما كنت يوماً مقصر

كيف لازلت تحيا وانت تواجه تراجيديا

أخاف أن يتحول الجمر إلى رماد

نساء الخبيبات واللعات الضغيرة
أبلى علفت زوجها بحاسوبي ، أنتظرت
إتلاثك هذا اليوم ..
تصغف اطلالتك ، ربح اطلالتك ،
تلك

يربعها تطلين برأس طلعته ترحب

سئمة

أصداها التيسر وساعدت في

رسائلني المحلحة والتي بعضها

يدون ملح

أهزج إلى

برودي كأم متناقبة أنهبها الترفيق

تتهرج إلى المناهضة لتنتشم أخبان

وجيدها

الذي قيل أنه سيأتي ، ولا أجد إلا

الخواء ولا

اسمع إلا صفير الوحده يصغف

أنثي

ويتشمت بحالتي المضحوك عليها

، إنتظاري على آخر من الجمر ، أخاف

أن يتحول إلى آخر من رماد كان بالأيس

جمر.

تعلن طائرة شركة التواصل

والاتصالات اللبية المصروية السورية

الكويتية الفلسطينية العراقية

فدوره تراهة

رحلة برديها فغلى الرابكة – ويجا

– ضرورة إتمام

الإجراءات والإسراع بالصعود

إلى الطائرة

عن طريق بوابة القلب التي ستلق

بصد قليل ، أقر تحسُن طائرة التواص

.....

غيابك وعدم الردّ على رسائلي

أقلقتني كثيرا وأقلق راحة أصابعي لذلك

فأنا مضطر إلى

أفقر بين الغيبة والأخرى ليرتاح

قلبي ..عيبكم

خير إن شاء الله .. والغائب فقط

عذره معه ولكن الغائبة غير معذورة ،

ألم تستعني الشاعري

السوداني – عبد الخالق لحوب –

رئيس وزراء السودان

الذي أطرد به النيميري فيقول في

جيبته أجدهم

ينتهي إلى قبيلة الجعافرة –

الجغريون لا

يؤمنون ما وعدوا والجغريات لا

يختلفن ميعادا – وحتى توفي بجهدك

كأية جغرافية محترمة

للكلام الفلسطيني روعة بل يسمعه

وخاصة

إذا كان همسا .. فاهمني في، حتى

الآن لا أملك

الجرأة لصغف خذ حروفك ، بندو

أنثي وقعت ، سنسألوك استجماع

شجاعتي والهوى على خذك بصمغة من

شفتي .

وجدان شكري عياش